روايات مصرية

X 1

رَهَف

د. هاني مجاج

www.riwaya.ga

www.riwaya.ga

مقدمة

اقترب أكثر!

الآن تقرر المصير .. مصيرك معى!

عندما أمسكت كتابى وبدأت تقليب الأوراق فى يسر وأمان كأنها ليست إضافة ذات شأن إلى تفاصيل يومك ، فقد اخترت أن تُجرِّب دفع الباب الموارب قليلا وتطل برأسك .. أعترف أن الأبواب الموارية تغرى الرؤوس بأن تطل ، لكن كان بمقدورك أن تمضى فى طريقك ولا تهتم .. لكنك تمهلت واسترقت النظر كالمتردد أمام متجر تحف قديمة .

ها أنت تبطئ الخطوات ، وها أنا أفرش بضاعتى أمام محل الأنتيكا : من أين جاءت هذه اللوحة الزيتية التى تتبدل معالمها كل حين ؟ صندوق الأصداف فى الرف العلوى ، من أى بحر مسحور جاء ؟ لا ريب أن هذا الشمعدان الرزين وراءه قصة ! الجو بارد وأنت تريد أن تعرف ولعلك سوف ترحب بفنجان قهوة معى فى جوف المتحف لتسمع حكاية .

اجلس بجوارى واقترب أكثر ، سوف نشعل المدفأة ونغلق الباب اتقاء المطر ، لا لن نحكم المزلاج .. سنتركه مواربا ، لعل أحدهم يعبر السبيل هاربا من العواصف أو من ذاته ، تجذبه مقتنياتنا النادرة ويدخل .. دائما وأبدا ، لا توصد بابك .. فلن تعرف أبدا من يكون ضيفك الليلة، ومن يرغب فى سماع حكاية عن ذلك الجانب الرمادى القائم تحت أرفف الطرائف والأقنعة والتماثيل .. ذلك الظل البارد .. ذلك المجهول .

إهـــداء

السلسلة مهداة إلى روح الأستاذ ، حمدى مصطفى .

www.riwaya.ga

« بيت »

ظل البيت القديم مهجورًا لسنوات . وعلى حاله بقى ثابتًا ، عملاقًا ، مهيبًا، كشجرة سامقة عجوز ، لكنه بدأ يشحب ويبهت من الخارج وتزداد نوافذه إظلامًا من الداخل . مات اللبلاب الذى كان يكسو جدرانه ، وعلا الغبار الكثيف الأبواب ، لا يجاوره أى شىء سوى قناة راكدة بعيدة عن الطريق . وعندما يأتى أمشير يسمع أهل القرية بالليل صوتًا يبدو كأنه لامرأة متجبِّرة تزوم: « رووووووووووووو » يقولون إن مصدره الريح التى تمر عبر المدخنة، أو عبر إحدى النوافذ مكسورة الزجاج والتى لم يهتم أحد بإصلاحها أبدًا . لم يذهب إلى هناك مخلوق ، خاصة بعد اختفاء الصبى (سلمان) الابن البكر لعمدة القرية ، بعض أترابه قالوا إنهم شاهدوه عند البوابة الصدئة للبيت المهجور للمرة الأخيرة . وهكذا أصبح محط أنظار المارة القليلين بالترعة القديمة ، وموضوعًا لحديث الرجال حول ركية النار ليلًا ، وحُجَّة جيدة تحبس بها الأمهات أبناءها فى الدار ، ثم لم يعد يذهب إلى هناك مخلوق واعتبروه ملعونًا ، ولم يبد منهم اهتمام حقيقى فى الكلام عنه بعد ذلك .

اثنان من الصبية حاولا استكشافه فضولًا وطلبًا للمديح ، حاما حوله ، تسلقا سوره المرتفع المهدّم فى أكثر من موضع ، بل إنهما دخلا حديقته وتأمّلاه عن كثب وقلباهما ينبضان بأمل العودة إلى الأهل ومعهما السر الرهيب .

www.riwaya.ga

ولكن ، لا شيء . ظلا هناك لأكثر من ثلاث ساعات حتى نفد صبرهما فأمسك أحدهما حجرًا وألقاه على إحدى النوافذ ، وأجفل هو وصديقه من رد الفعل ، ولكن بعد صوت تهشم الزجاج لم يجب عليهما سوى الصمت . انتظرا قليلًا ثم رحلا بعد أن أودعا البيت القديم حجرًا وحلمًا بمغامرة يحكيانها للجميع ، ونالا بالمقابل خيبة أمل لا توصف ونيّة حقيقية فى نسيان الموضوع برمته . إلا أن أحد الصبيين رأى فى هذه الزيارة شجاعة تستحق السرد والتمجيد ، وبالفعل نالا تقديرًا مناسبًا على جرأتهما النادرة ؛ فتلقى أحدهما صفعة على وجهه فقد معها القدرة على تمييز الاتجاهات ، وصُلِب الآخر فى نخلة وضُرِب على مؤخرته بخيزرانة منقوعة فى الزيت حتى أصبح من هواة الترحال سيرًا ولم يتمكّن من الجلوس إلا بعد أسبوع كامل . كان ذلك درسًا كافيًا لكل صبى يداعبه الطموح فى الاقتراب من البيت الذى اعتبره الكبار مُحرّمًا . ربما لا أشباح هنالك ، لكن حكاية (سلمان) التى لم يقف أحد على سرها مازالت عالقة بالأذهان ، وأصبح هناك مفهومًا عامًا أن الاقتراب من هذا البيت أكثر من اللازم يكون مصحوبًا بنتائج غير مُستحبّة على الإطلاق ، بل أن البعض أضاف أنهم قد بدأوا فى سماع الصوت المخيف بعد مغامرة الصبيين القصيرة . آمن أكثرهم على هذا القول ورأوا فى الصوت تحذيرًا من سكان البيت (اللهم احفظنا) لكل من تسول له نفسه الاقتراب ، وفسّر بعض العاقلين ذلك الصوت على أن النافذة التى حطمها أحد الصبيين صنعت مع فتحة المدخنة معبرًا يدخل منه الهواء ويخرج

www.riwaya.ga

كالصفارة . لا لعنة تسكن البيت ، فقط لو لم يكن ذلك الحجر ؛ لما سمعنا ذلك الصوت ، لكل ظاهرة تفسير . وفى النهاية اتفق الجميع على ترك الحديث عن البيت وسيرته الشؤم .

إذا كنت أحد أولئك الذين سكنوا مدينة (السويس) فى ذلك الزمان ، ربما تكون قد سمعت عن المنطقة الريفية منها التى تحمل اسم (الجناين) ؛ وتعود التسمية لاختلافها عن ريف الدلتا أو الصعيد ، فهى أكثر جمالًا وأغلبها حدائق فاكهة . فى تلك الأيام كان يمكنك أن تتقدم بسيارتك قليلًا أو تسير على قدميك لمدة نصف الساعة فقط ، وعند أطراف آخر القرى سوف ترى البيت العملاق فى سكونه الراسخ المتحدى للزمن والأقاويل . ولا يهم إن كان الفصل شتاء أو صيفًا ، فالجو المحيط بهذا البيت دائمًا خريفى أغبر بليد مُلبّد بالغيوم والغم ، وكأنه لفرط ضخامته يحجب الشمس . المنطقة حوله موحشة كئيبة ، ما إن تقع عليه عيناك للمرة الأولى حتى تجتاح روحك كراهية لا تطاق ، أقول كراهية ؛ لأن الشعور لم تنجح فى القضاء عليه تلك الرغبة الهادئة التى يحاول بها العقل أن يُصنّف ما تتلقاه الحواس إزاء هذا الكيان الفريد .

لا يمكنك أن ترى الترعة المهملة وأنت تقف عند واجهة البيت لأنها تقع خلفه (دائمة هى صورة واجهة البيت مطبوعة فى الذهن وليست أبدًا خلفيته !) لكنك تستطيع أن تشاهد بركة سوداء ، إلا أن سوادها قذر سميك كالنفط ، غامق كالحبر ، كثيف كالقراء الدسم ، على سطحها سقطت أوراق

www.riwaya.ga

شجر ذهبية وبُنية جافة وأعواد رفيعة ميتة ، إذا مرّت نسمة هواء اهتزت ببطء شديد يجعلك تحملق فيها بقشعريرة أشد عنفًا وتعتقد للحظة أن طبقة الماء الأسود ما هى إلا الجلد الثخين لحيوان يسكن حفرة فى الأرض وها هو يتقلقل فى رقاده ويستعد للخروج . وليس هذا بأغرب الأشياء ! انتظر ساعة أو ساعتين ، عند الخامسة والنصف تقريبًا عندما يُرخى الغروب سدوله سوف تجد البيت يختفى أمام ناظريك ! تدقّق أكثر فى الجذوع الخاوية للأشجار النخرة والفطريات المنتشرة على السياج فتراه ينتصب أمامك بقدرة قادر !

إنها إحدى حيله السحرية من نوع (الآن تراه / الآن لا تراه) : تحالف البيت الماكر مع الزمن القدير فمسح ألوانه وطلاء إفريز نوافذه وكسا ملامحه بطبقة رمادية داكنة تميل إلى البياض المُغبَّر : فما إن يبهت ضوء العصر حتى يصبح قطعة من السماء الداكنة . تُمعِن النظر فتلاحظ الحبال السوداء التى مات عليها النبات المُتسلِّق تتدلى من فوق سطحه كخصلات شعر مُجعَّد تحاول عجوز متصابية أن تجمعها على جبينها ، وتكتشف الأُطر المظللة لنوافذه التى تشبه العيون ترمقك فى صمت وترقب ، وترى العواميد المتداعية عند مدخل بابه الذى يشبه فمًا مستطيلًا يهمس بمكر رخيص وصبر لا مبالى : « أدخلنى ! »

لا تفكر حتى فى تلبية النداء وتذكّر أن الوقت متأخر ويجب أن تعود على عقبيك واهرب من هذا المكان المقبض وهوائه الثقيل كرائحة الكيروسين

انظر ! كل شيء هنا ينذرك بالرحيل ، كل الأجزاء مترابطة بإحكام ، البيت مستقر في مكمنه بين الترعة والبركة ، ينعس وسط حديقته الذابلة وقبة السماء المضببة تحيط بكل هذا ؛ فلا مكان لك .

في كل الأحوال هو اختيارك في النهاية . لئن آثرت السلامة وفررت بجلدك من هذه البقعة الموبوءة فبها ونعمت ، أمّا إذا قررت أن تجازف باجتياز الأسوار وسبر أغوار هذا الدار ؛ فلن تكون الأحمق الوحيد .. لقد سبقتك !

***

لتحميل المزيد من الروايات الحصرية
مكتبة رواية
www.riwaya.ga

www.riwaya.ga

« تحقيق »

س : اسمك وسنك ومهنتك ؟

ج : (بشرى عدنان) ، ٢٩ سنة ، وكيل نيابة .

س : ما هو قولك فيما هو منسوب إليك من اتهامات ؟

ج : لن أجيب كما يفعل المرتزقة باستهتار أو ندم : (كنا ننفذ الأوامر) ، ولكنني فعلت ما ينبغي عليّ فعله ، ولو عادت الأيام إلى الوراء كنت سأقوم بالشيء ذاته .

س : (ويمكنك اعتباره سؤالًا وديًا) ألم تخشَ أن تترك خلفك ابنًا وحيدًا ؟ ألم تمنعك زوجتك عن الذهاب ؟

ج : (أرى أن السؤال مُسجّل ! فيمكنك اعتباره جوابًا رسميًا) كما قلت؛ كنت أقوم بعملي ، لا توجد محكمة تفتيش على ظهر الأرض أشد قسوة من ضميرك . كل المغريات بالصيت والثراء غير قادرة على أن تجعل الطبيب ينتفض قائمًا من فراشه الدافئ . صيحة توجّع واحدة لمريض بائس تستطيع فعل هذا. كان المرض أمامي وكان علاجه معي عندما كنت مُيسّرًا لما خلقني الله له . وبالمناسبة ؛ لا زوجة لي ولا ولد !

س : (تفضل سيجارة أولًا) إنني أحاول أن أتفهّم موقفك ، صدقني . فقط ساعدني وأخبرني بكل شيء من البداية ؟

ج : (أشكرك ، توقفت عن التدخين منذ عامين لأسباب صحية ، وهذه

الحيلة لعقد صداقة مع المتهم ليقع بلسانه مع دخان أول لفافة تبغ فعلتها قبلك ، يقولون إن مبرومًا لا يلف على مبروم ، لكن هذا ليس المكان المناسب لقول كهذا !) أما أن أخبرك ببداية كل شىء ؛ فهذا ـ كما ترى ـ صعب ، هناك بدايات كثيرة وهناك بداية تسبق البداية ، الأمر الوحيد الذى يمكننى أن أزعمه هو أن أخبرك بجل ما سمعته ، وبالطبع ـ بدايتى أنا فى هذه القصة .

س : تفضّل ، واختصر لو سمحت ، إن وقت النيابة ضيق كما تعلم فلا تدخل فى تفصيلات كثيرة غير مهمة وركز فقط على النقاط الأساسية للموضوع ، هلا فعلت ؟

ج : بكل سرور ، لحسن حظك ، إننى أحاول نسيان كل شىء وأجده واجبًا ثقيلًا كالجاثوم أن أستعيد هذه الأحداث المقيتة ، ولو أن هذا لا يخلو من راحة !

***

جريمة تلو الأخرى والفاعل مجهول !

تعرف أن الجرائم التى يروح ضحيتها الأطفال ليست فنًا مستحدثًا ، وربما يكون أكثرها هو ما كان الدافع من ورائه التستر على فضيحة أو إخفاء ثمرة علاقة مشينة ، وبالطبع يأتينا البلاغ من جارة ممتقعة الوجه عثرت على رضيع مخنوق فى مقلب النفايات أو من عابر سبيل تعثّر فى حجر ليلًا ، لكن هذا الحجر ليّن وطرى نوعًا مّا وملفوف فى قطعة من قماش مهترئ ملوث بالدم . وفى أغلب الأحوال تكون الجانية هى الأم نفسها ، وكأنها لا تكتفى بجريمتها

الأولى فحاولت مسح آثارها بجريمة جديدة ؛ ربما كانت أكثر شناعة . الأطفال الأكبر سنًا يموتون قتلًا فى حوادث الانتقام أو الإهمال ، أن تقتل صبيًا تشفيًا فى أبيه أو أن تختطف فتاة صغيرة لملء نفوس أهلها بالحسرة . ولا أعرف كيف يستطيع الجانى فى مثل هذه الجرائم أن ينظر إلى نفسه فى المرآة بعد ذلك ، لعله خسر نعمة البصر بعد أن فقد نور البصيرة .

وفى الليلة السابقة لبدء التحريات تبادلت أطراف الحديث مع زميلى المحقق (جمال عبد الغنى) فى قبو المحكمة القديمة بمنطقة (تل القلزم) . قال وهو يضع كوبًا من الشاى المغلى أمامى لعلّه يساعد أصابعى التى تيبّست من رطوبة المكان :

ـ « فى رأيى أن الجريمة واحدة مهما كان نوعها أو مرتكبها أو المجنى عليه فيها ، إنها رد الفعل البدائى لنفس ضعيفة الإيمان أو سريعة الغضب أو حقود غير ناضجة ، بعض التفاصيل تجعلها تبدو مختلفة ، لكن اليد التى تندس فى جيبك لتسلبك مالك وبطاقتك الشخصية لها نفس المرض الذى تحمله اليد التى تدس لك السم فى الطعام »

ـ « أو فى الشاى ! »

ـ « .. والتى تطعنك بخنجر يمزق طحالك أو التى تمتد لتهتك عرض طاهر ، الأديان السماوية كلها أمرت بالقناعة وغض البصر وسيدنا (محمد) أمر بكبح الغضب وهو أصل كل شر ، إذا كنت لا تستطيع منع النفس المريضة من أن ترسل مرارة القلب لتسد بها منافذ العقل فالنتيجة الوحيدة هى موت الضمير ،

بعدها توقع أى شىء »

ـ « ولكن ، » وشربت جرعة من الشاى ، كان له طعم الورق المحروق الذى تم غليه بعناية ، « الضحايا هذه المرة لم يتجاوز عمر أكبرهم الخامسة عشرة ! » مشيرًا إلى الملف المفتوح أمامى .

مط شفتيه فى تقزز ومد جسده عبر الطاولة الزان .

ـ « الأطفال يرتكبون الجرائم اليوم ! »

وعثر بين جرائد اليوم (العاشر من أبريل ٢٠٠٥) على نسخة من الأخبار :

ـ « افتح صفحة الحوادث .. أعلى اليسار »

فى الموضع المذكور خبران بالبنط العريض :

طالب بالإعدادية يقتل جارته الطفلة ويسرق قرطها الذهبى لدفع مصروفات رحلة/ وطالبتان بالثانوى تشتركان فى قتل زوج إحداهما ووالد الثانية .

لعلها جريدة الغد لأننا قد تجاوزنا منتصف الليل . ورغم أننى لم أكن حديث العهد بعالم الجريمة إلا أننى لم أقاوم اشمئزازى مما قرأته . فطويت الصحيفة غير راغب فى المزيد وطلبت الدفء من كوب الشاى الذى بدأ يبرد و(جمال) يدق بمفاصل أصابعه على الطاولة :

ـ « فى رأيى أنها تتبع حوادث الإهمال ، من المتهم ؟ بالتأكيد ليس هؤلاء القُصّر ، لكن هذه الجريمة قديمة سقط عنها الحكم الآن ويجب أن ندفع الثمن . الشاب الآن يهرب من مدرسته ويتعلم من أفلام (أحمد السقا) أن

السجن يخرج أبطالًا ! »

عدت إلى أوراق ملفى الكئيبة . لا أستطيع أن أجارى (جمال) فى دور المصلح الاجتماعى الذى يلعبه ، كل ما يعنينى هو قضيتى : ثلاثة أطفال (اعتبرنا ذا الخمس عشرة سنة أحدهم على سبيل المجاز) يختفون فى تواريخ متتالية ومكان واحد معروف بهدوئه ، هذا الطابع معروف لدى الغرب أكثر ، كما ينتفى وجود الدافع ؛ (نجية على) ابنه لأسرة فقيرة تحيا كالحشرات فى طرق الغيط الذى يعمل فيه الأب ، (علية رضوان) ابنة رجل مشهود له بحسن الخُلق ولطف المعاشرة ، سبَّاق إلى عقد الصلح بين المتخاصمين ، (نبيل الجندى) مراهق فى بداية دراسته الثانوية لا يعانى من مشكلات مع أبويه ، وربما تكون أعظم مغامراته التسلل مع إحدى زميلاته للسير على كورنيش (بور توفيق) فى أقصى المدينة وأفدح جريمة ارتكبها هى مشاهدة كليب لـ (جينفر لوبيز) عند صديق يملك دِشًا . إذًا ماذا ؟ الطفلة الأولى تنفى فكرة أن يكون الدافع هو المال سواء بطلب فدية أو سرقة ما ترتديه من حُلى ، والثانية تلغى أن يكون السبب هو الانتقام ، ووجود الشاب بين الضحايا يؤكد عدم التزام الفاعل بسن معينة ويطرد احتمال أن يكون وغدًا منحرفًا هدفه الأطفال الإناث . والقرية صغيرة ؛ إذا مازحت زوجتك عند شرقها سمعتهم يتغامزون عند غربها ، الكل يعرف الكل ومن قديم ، دخول القرية والخروج منها يتم عبر وسيلة واحدة هى الميكروباص من اتجاه البحر أو عبر كفر الشهيد (أحمد عبده) وسوف تكون محشورًا بين عدد من الوجوه المألوفة كدودة فى علبة صياد كسول ؛ فإن لم

يتعرّف عليك السائق ، الويل لك ! وأى سيارة خاصة تدخل لا يمكن أن تعود قبل أن يتحقّق منها الجميع الذين يجلسون أمام ديارهم طيلة اليوم تقريبًا .

راجعت البلاغات المكتوبة بإمعان أكثر فلم أصل إلى شىء ، ثمة تفصيلات كثيرة يجب علىّ معرفتها ، هذه هى مهمتى . فركت عينى من الإرهاق الذى بدأ يُخيّط جفونى ولم أرغب فى فتح باب الكلام من جديد مع (جمال) الذى يحيل كل مناقشة إلى درس فى الأخلاق ، وسمعته يغمغم فى بساطة وهو مندمج فى مطالعة مجلة على غلافها (هيفاء وهبى) فى وضع لطيف جدًا :

ـ « بمناسبة الحديث عن الجريمة ؛ ألم تفكر فى الزواج بعد ؟ »

***

« مُتسلل »

توقّف لحظة عند مدخل داره . الضحى ارتفع والسماء الخُغبَشة ترسل أشعة حامية ، ودفقات متتابعة من الغبار الحار الثائر تريق الكدر والضيق فى نفسه . امتدت يد الزمن فعصفت بكل شىء إلا القيظ لم يتلطف . سوّى لاثته المزركشة فوق رأسه وعدل من وضع قفطانه وقبل أن يهم بالولوج إلى الداخل استوقفه ظل متحرك ، ارتاب ولم يفهم لمَ انقبض صدره . عاد إلى الوراء خطوة ليتبين ما توقّع أن يكون وهمًا عندما فتح الباب من الداخل وأشرق وجه زوجته بالمفاجأة :

ـ « (سيد) ! عدت مبكرًا ! »

تبدد الخيال من خاطره وتناول مرفقها بحنان ثم أغلق الباب خلفهما . أظلمت الدار فجأة أم هو الأثر العكسى لنور الشمس فى عينيه ؟ عبر النافذة رأى سحابة ثقيلة متدنية قاتمة السمرة أحالت الظهر مغربًا .

ـ « مالك يا أبو (محمود) ؟ »

ـ « لا شىء . ربما انتقلت إليّ عدوى القلق من الحاج (مرتضى) ، تعرفين أن مخزن الفاكهة الذى يملكه تعرض للسرقة »

ابتسمت مُطمئنة . فتأملها بهدوء وحنان . هل يمكن أن تجود الحياة بأكثر من تجارة ناجحة وزوجة أجمل من البدر وابن فيه منه الكثير ؟

أشرقت الشمس من جديد فأسرعت ثعابين القلق تتوارى فى جحورها ،

دخل الضوء إلى حيث يجلسان وتردد همس الأمان فى أركان المكان ، ابتسامتها أقوى من كل الظلال وهى تقف أمامه بانتظار أن ينهض معها إلى حجرتهما . تأمّل قامتها المتناسقة فتشعشعت روحه بالنشوة ، مد كفيه وقرّبها منه ، ضحكت ضحكة قصيرة من المفاجأة . تناول وجهها الفاتن بين راحتيه فبعثت فى أطرافه دفئًا ناعمًا لطيفًا ، لا شىء مقارنة بلهيب الطقس العجيب . شعرها المدهون عند مفرقه بالحناء يبرق فى بعض تموّجاته وتفوح منه رائحة الراحة . فى سره حمد الله ثلاثًا وتلا سورة الفلق ؛ إذا تربصت بنعيمهُ العيون فهو أول الحاسدين . قبّلها على جبينها وتبعها إلى حجرة النوم وهو يسألها فى هدوء :

ـ « أين (محمود) ؟ .. لا أراه »

***

أمنية الأمنيات وأسعد خبر فى الوجود : لا توجد مدرسة اليوم !

تم احتلال فصولها بصناديق انتخابات مجلس الشعب وأعلن الناظر لتلاميذه أن اليوم إجازة ، ينفجر السرور بين الأولاد ويهرعون للفرار خشية أن يراجع الناظر نفسه ويرى أنه من الممكن إجراء عملية الانتخاب وإتمام اليوم الدراسى فى آن ، أو على الأقل يكتفى بنصف يوم ، وعند البوابة فتر حماس أكثرهم فجأة عندما طالعتهم السيارات المصفحة حاملة الجنود والصناديق وانتشر بعضهم حول البوابة ناشرًا سونكى بندقيته أو هراوته فى وجوه التلاميذ المحتشدة للتحرر ؛ هؤلاء الذين توقّع أكثرهم أن كل هذه التمثيلية هى كمين أعدّه الناظر لاختبار حب (أبنائه) للبقاء فى فصولهم وهاهم أفراد الجيش

يضبطونهم عند الأبواب متلبسين بتهمة كراهية العلم ، هذه الصناديق زاخرة بالقنابل ولا شك !

ـ « يا إلهى ! » بحنق يصارح مدرس الدين الإسلامى واللغة العربية زميلًا له « هل ضاقت الدنيا بالوزارة فلم تجد سوى مدرسة إعدادية لترهب طلابها بحفنة من الجنود الذين يجهل أكثرهم القراءة ؟! »

ينفث مدرس التاريخ البدين ذو الندبة البيضاء عند ذقنه دخان سيجارته فى وجهه وهو يتناول علبة سجائر من قميصه المشجر لأن هذه قد احترقت ، شعره منكوش وبقى أن يضع ساعة يد فى كل معصم ليتحول إلى (شعبان عبد الرحيم) ، يقول مستمتعًا وهو يشعل السيجارة البكر من العقب الراحل :

ـ « دع النش» يتعلم كيف تتم الأمور بنزاهة فى بلد الفراعين ! هاو ! »

تتفرّق الجموع كذباب يهشونه فوق صندوق قمامة ، العدد الأكبر من الطلبة يعود للتجمّع فى أماكن أخرى فسيحة للعب الكرة أو لتسلق الأشجار أو للتسكع حول سور مدرسة الفتيات ، طالب معاق عاد إلى داره يتسنّد على زميل له (ربما غير هذين الاثنين لن يدخل أحد من هؤلاء كلية محترمة فى يوم ما بالمستقبل !) وخلف أسوار المدرسة (بعد الابتعاد مسافة كافية عن العملية الأمنية التى تدور بالداخل) ينقسم بعض الصبية إلى فريقين فى مباراة كرة قدم صفراء . الأصفر هو لون الكرة البلاستيكية الرخيصة المبقعة بأشكال سداسية سوداء ، وهو لون الظهيرة المشتعل فوق الرؤوس والذى جعل للمباراة حرارة ممتعة ، وهو لون التى شيرت الذى ارتداه (على توفيق) نجم الموسم

وكل موسم ، يتحرك فى الملعب كالعفريت ، ربما ظننت أن الفريقين يرتديان الزى الأصفر ، لا ؛ إنه (على توفيق) الذى لا تفارق الكرة قدميه ، يقفز فوق الرمل كالإعصار فكأنه الوحيد الذى يلعب هنا والباقى متفرجين ، لم يكن أنانيًا، لكنه كان يدفع بالكرة لزميله فيكون هو نفسه الذى يتلقاها لأنه أسرع من الجميع ، وفى كل مرة تحدث مشاجرة بين الفريقين لأن كليهما يرغب فى ضمّه إليه . يسجل أهدافًا أيًا كان عددها ، فهو كفيل بتحقيق النصر ويبعث الاطمئنان فى قلب وأوصال صديقه الحميم (محمود سيد) الذى يقف كحارس لمرمى فريقهما المكون من حقيبتيهما تفصلهما خمس ياردات من الرمل الأصفر . (محمود) أقل سرعة ونشاطًا فيكتفى بدور حارس المرمى ، يساعده فى ذلك أن (على) فى معظم وقت المباراة يحوز الكرة ويمارس بها سحره فى النصف الآخر من الملعب ، نصف الأعداء من الفريق المنافس ! ربما لو أنجبت له أمه أخًا أو أختًا لما أحبهما كما يحب (على) الذى سقط الآن بفعل حركة ماكرة من أحد لاعبى الفريق الضد ، يدخل التراب شفتيه فتدمع عيناه رغم قوة إرادته ويسعل بشىء من العنف ، وجهه الأبيض يلتهب ، يسيل الدمع من أنفه الذى يصطبغ بحمرة عميقة ، ينتفض (محمود) ويغادر مرماه راكضًا نحوه ورغم ألمه يلوح له (على) بكفه أن لا تفعل أيها الأحمق ! ويصيح الأعداء عندما يتمكنون فى هذه اللحظة من إحراز هدف عز عليهم طوال الوقت المنصرم ، لكن (محمود) لا يعبأ بالمباراة ولا يهتم بالأهداف ، بل إن كل الصيحات الخشنة من حوله غير مسموعة وحرارة الجو غير مؤثرة ، يسقط على ركبتيه يتناول رأس صديقه ويلتف حولهما الباقون . فانلة (على) الصفراء مُبقّعة

بالعرق على الصدر وتحت الإبط ، التراب ملتصق بعرق وجهه الأشقر الساخن والرمل ينتثر فوق شعره البنى المجعد .

ـ « (على) .. هل أنت بخير ؟ »

يجيب بحركة من رأسه دون أن ينبس وكأنما لا يستطيع النطق ثم ينهض والرمل ملتصق بمجرى العرق على ذقنه وعنقه ، يبصق التراب ويعود إلى الملعب وتعود الكرة المشتاقة إلى قدميه ليلقن الأعداء درسًا . صياح وركض وسباب ، عرق والتحام أجساد واستماتة وتمرغ فى الرمل الساخن حتى يُقدّر للمباراة أن تنتهى عندما يهبط شعاع الشمس وترحل السيارات بصناديق الانتخابات وجنوده . يتناول الأولاد حقائبهم ويقهقه (على) صائحًا بسخرية لاذعة فى أدبار الفريق المهزوم العائد إلى الديار :

ـ « بالهناء والشفاء ! »

يلتفت أكثرهم شراسة ملوحًا بقبضته فى إشارة معناها : موعدنا غدًا !

يهز (على) خصره كراقصة مواصلًا التهكم :

ـ « اذهبن لعون أمهاتكن فى المطبخ ! »

تلقى سبة فاحشة ردًا على هذه ؛ فضحك وتناول حقيبته الممزقة الجيوب من (محمود) وتقدمه وهو يدفع الكرة أمامه من قدم إلى قدم .

ـ « وأنت .. إياك أن تغادر المرمى مرة أخرى ! »

ـ « لقد انطرحت أرضًا كالذبيحة ! »

ـ « حتى لو ذُبحت بالفعل لا تغادر مكانك ، هل تفهم ؟ »

(على توفيق) هو الأخ الروحى ، هو المعلم الأكبر ، هو الخبير فى الحياة وكل شىء ، هو من علّمه كرة القدم وما لا حصر له من الفوازير صعبة الحل وكيف يجمع التوت دون أن يسقط من فوق الفروع الثعبانية ، هو الذى يحتفظ فى جيب حقيبته السرى بمطواة وثلاث صور لنساء مقصوصة بعناية من مجلة أجنبية بهيئات لا يمكن أن يظهرن بها فى الطريق أمام الناس ويبدو أنهن قد خلقن فقط ليتجمّدن فى حقيبة (على توفيق) الماهر والشيطان والأستاذ .

يستريحان فى ظل شجرة بعد أن جرفهما السير إلى حيث تقل كثافة البيوت وتطمئن الطيور إلى الخلاء . (على) يركل كرته المنهكة أمتارًا للأمام وينهض لاستعادتها ثم يعاود الكرّة ، فى هذه النقطة الخالية لن تسقط فى (طشت) إحداهن كما حدث مرارًا ! وعجب (محمود) من نشاطه الحى وهو يرتكز على قدم واحدة وبالأخرى يراقص الكرة فى الهواء فلا تسقط إلا بعد أن يمل العد .

ـ « آمنت بأنك قادر على تحقيق المعجزات .. سوف تصبح لاعبًا محترفًا ! »

فيرد وهو يركل الكرة لترتد على حائط قديم لحظيرة مهملة :

ـ « ربما ليس بعد اليوم .. قررت أن أكون ضابطًا بالشرطة فأحتجز كل الطلبة الجبناء فى فصولهم ! إنه التجديد . ولتبقَ أنت تحت ظل أمنية أن تكون كاتبًا للقصص ، أنت أحمق كعهدى بك ، من أين جئت بهذا الهراء ؟ »

ـ « من البيت ! »

ـ « عفوًا ؟! »

ـ « السنة الأولى فى المدرسة ، دار (نبيل) ولعبة البيت المسكون ، ألا تتذكر ؟ »

عندما دخل (محمود) مدرسته الإعدادية حال تفوقه الملحوظ وتعثره بحيائه الطبيعى الذى ورثه عن والدته دون أن يكون له أصدقاء حقيقيون ؛ اللهم إلا هؤلاء الانتهازيون يستغلونه فى حل المسائل الصعبة اعتمادًا على ثقتهم بعدم قدرته على الاعتراض . وتداعب الأحلام زعيمهم أن يهمس بصوته الأجش خلفه فى امتحان شهرى للعلوم طالبًا إجابة جاهزة من الطالب المُجد يحفظ بها ماء وجهه ويضعها فى ورقته العذراء ، لكن (محمود) عزّ عليه أن يبيع جهده بالأمان فتظاهر بالانهماك فى الإجابة والفحيح مستمر خلفه ، وينتقل تدريجيًا من الطلب إلى الأمر فالتوسل ثم التهديد فضربة خاطفة فى الكتف حيث لا يلاحظ المدرس المُراقب ، مزيج من القلق والخوف والتركيز والضيق والإحساس بالمهانة يجتاح نفس الفتى ، يصارع الشعور بالعار ويحاول الإجادة بأكبر قدر ممكن ، حتى ينقذه الجرس فيجمع المدرس الأوراق ، يغادر الفصل دون أن يلتفت وراءه وعرف من الحركة المتوعّدة التى وصلت إلى أذنيه أنه قد وقع فى مأزق خطير . يناير والهواء مجمّد خارج الفصل وكوب الشاى الذى أعدته له أمه صباحا يتقلقل فى جوفه وتوتر الامتحان و .. الخوف ، كل ذلك أهدى إليه ثقلًا مفاجئًا فى مثانته ، يسرع الخطى إلى دورة المياه (يأمل ألا تكون مزدحمة) لكن خطى أخرى غير صديقة خلفه ، ويتحرشون به عند باب الحمام قبل أن يدخله ، الفتى الشرس وحفنة من عصابته ينوون شرًا

بعد التمهيد لعقابه بالتربيت على خده وإلقاء حقيبته أرضًا يتلقى لكمة أسفل بطنه فخُرت الدمع من أنفه وأفرغت مثانته فى الحال ، انثنى من الألم المروّع وسخرية أحد الأوغاد تصل إلى أذنه المحمّرة : «فعلتها ! اذهب إلى أمك لتغير لك ثيابك يا صغيرى ! » وانتظر الضربة التالية لكنه فقط سمع إهانة جديدة بصوت لم يسمعه من قبل : « ما رأيك فى من يغيّر لك معالم وجهك ؟ » وظهر صاحب الصوت كأبطال الحكايات وكان ذلك هو اللقاء الأول بـ (على توفيق) الذى فتك بالأشرار فسارعوا بالفرار ثم عاونه على النهوض قائلًا : « عندما يهددك أحدهم ؛ يكون السؤال الوحيد الذى يجب أن تجيب عليه فورًا وبشكل عملى هو : هل تسقطه أرضًا بدفعة من كفك فوق وجهه أم تضربه بركبتك بين ساقيه؟ صدقنى ، سوف يوفر عليك هذه الكثير . » ثم صحبه إلى الدار بين جزع أمه الجميلة وتساؤل أبيه التاجر المهيب ، فقالا كذبة عن وعكة مجهولة السبب ليمر الأمر بسلام ، ورقد فى الفراش ثلاثة أيام بمغص رهيب فى معدته، ربما لم يُلطّف من روعه وقتها سوى معجزة البيت المسكون .

لوّح (على) بمفرش المائدة فأخفى البيت عن مرأى (محمود) طريح السرير : « الساحر العجيب يقدم أخطر فقراته ! » والبيت هو عبارة عن (ماكيت) مصنوع من الخشب ، كتل وألواح حصل عليها (على) من مخلفات عم (لمعى) نجّار البلدة فصنع منها بيتًا فى هيئة الأكواخ مائلة الأسقف ، وهو فى حجم صندوق متوسط دهن جدرانه بطلاء جيرى أخضر رخيص تبقى بعد تزيين واجهة دارهم احتفالًا بعودة والده من الحج ، ورسم له بابًا ونوافذ ، وهو

يفتح لك هذا الباب فتجد الصندوق الخشبى (جوف البيت) فارغًا من الداخل، يغلق الباب ويتلو تعاويذه ثم يعاود فتحه فترى بداخله مقعدًا خشبيًا . كيف هذا ؟ من أين جاء ؟ (محمود) يعتدل فى الفراش ، ويلوّح الساحر العجيب بملاءته ويفتح الباب من جديد وبالداخل يرى دمية صغيرة فى حجم كفك تجلس على المقعد ، تتسع عيناه ولا يفهم . يُغلق الباب ويُفتح وتكون الدمية كبيرة مصنوعة من القماش والخرز وقطع الخشب وتملأ فراغ البيت . والآن ركّزوا أبصاركم جيدًا ، يغلق الباب ويفتح وتتحرك العباءة التى هى أصلًا مفرش المائدة ويخرج من البيت ولد بلحمه ودمه صورة من الدمية الكبيرة وكأن الروح قد دبت فيها بفعل سحر مهول !

ـ « أيامها توسلت إليك بكل شىء أن تُطلعنى على سر هذه الحيلة ، لكنك لاوعتنى ورفضت ، حتى أيقنت أنه السحر فعلًا ، هل أخبرك شيئًا ؟ لقد راقنى ألا أفهم الحيلة ، طالما المعجزة قد حدثت ! »

يحرّك (على) الكرة بين يديه ببطء :

ـ « ولكن ما علاقة هذا بكتابة القصص ؟ »

يبتسم (محمود) ويغيب لحظة فى عالم آخر ثم يجيب :

ـ « الأشياء التى تظهر هكذا من العدم ، الفراغ الذى يتكشّف عن شىء صغير والشىء الصغير الذى يصبح حاملًا لدمية والدمية التى تتضخم ثم تصبح كائنًا حيًا ، أن تصنع شيئًا من لا شىء ، هذه هى المعجزة ! »

ـ « المعجزة الأكبر هى أن أفهم حرفًا مما تقول ! »

ولم يبدُ على (محمود) أنه يتابعه فاستطرد :

« أحببت وقتها كتابة القصص ووجدت فى كل قصة بيتًا خاويًا تمامًا من الداخل والمتعة الجمة هى أن تملأ أركانه بالمفاجآت ! أن يظهر كل شىء وينمو كالسحر ! »

ـ « عظيم ! » ـ وأقسم أنه قد جن ـ « وأى نوع من القصص ستكتب أيها المؤلف الجبار ؟ ألغازًا بوليسية مثلًا ؟ ما رأيك فى مغا .. »

ـ « رعب ! »

ـ « ماذا تعنى ؟ .. أشباح وخلافه ؟ »

ـ « قصص مخيفة » وخيل إلى (على) أن صديقه النحيل قد زاد عشرين عامًا دفعة واحدة وهو يجيبه فى هدوء متطلعًا إلى الأفق حيث تزاوج الليل والنهار فأنجبا المغيب : « ألا نتحدث عن حيلة البيت المسكون ؟ »

نظر (على) إلى أفق آخر وغمغم :

ـ « رائع ، ولكنت أنت أول كاتب رعب فى مصر » ورمى كرته أرضًا فى حركة حادة : « وبمناسبة الأشباح والأشياء التى تظهر وتنمو كالسحر ، أعتقد أن ظلًا يتحرك خلف هذا الجدار . ظل ينصت إلى ما نقوله منذ ربع الساعة على الأقل ! »

***

« زيارة »

وقفت بى سيارة النيابة أمام مركز الشرطة . لا تقارير إضافية عن حوادث اختفاء الأطفال ، واقعة واحدة فقط ربما هى غير جديرة بالذكر : أم (نبيل الجندى) ـ الصبى المختفى إذا كنت قد نسيت ـ جاءت إلى الضابط النوبتجى باكية ، تُقسم أن ابنها المذكور لم يزل على قيد الحياة ، رأته منذ يومين عند الحظيرة، كان مُسمَرًا فى مكانه كالمصدوم وبدا أنه لم يعرفها عندما أسرعت تحتضنه ـ كان باردًا كذلك ، بالمعنى الحرفى للكلمة ! توقعت أن يعود معها إلى الدار لكنه ابتعد . حاولت اللحاق به لكنه كان أسرع منها ، ورأت أنه قد اكتسب سرعة أكبر مما اعتادت أن تراه بها ، كانت خطواته أكثر اتساعًا والمسافة بين قدميه أثناء السير ازدادت طولًا ، هو نفسه ازداد طولًا ! من قبل لم يكن رأسه يرتفع كثيرًا عن رأس البقرة الوحيدة لديها ، لكنه الآن يفرق عنها بشبر كامل . هذا الكلام سمعته من الضابط نفسه لأنه لم يضفه إلى التحقيق باعتباره مجرد هلوسة للأم المكلومة . المسكينة أصاب عقلها الخرف .

التحقت بغرفة صغيرة فى مبنى قليل الارتفاع خلف مركز الشرطة ، وضعت فوق سريرها المعدنى الحكومى حقيبتى وغسلت وجهى من تراب الطريق وفكرت أن أحصل على قسط من النوم ، لكن كوب الشاى الثقيل الذى شربته مع الضابط قضى على هذا الاقتراح ورأيت أن أقوم بجولة فى القرية علّنى اهتديت إلى طرف خيط .

راودتنى خاطر أننى أعيد (يوميات نائب فى الأرياف) ، أنا أمقت قراءة الروايات ، لكننى شاهدت الفيلم والمسلسل . لا لشىء إلا لاكتساب خبرة فى التعامل بأقصر وأسهل وسيلة ممكنة كما حفظت أجاثا كريستى أثناء دراسته الحقوق والتحضير للنيابة ؛ بنفس المنطق الذى يُتابع به طلبة الطب حلقات (ER) لتعلُّم السلوك المناسب فى حالات الطوارئ ، والذى يجعل الحمقاوات يتابعن بشغف أفلام سعاد حسنى ومنة شلبى لا لشىء إلا لأن ذلك يمنحهن حصيلة مناسبة من الدلال الجذّاب الممزوج بالتمنُّع المرح أثناء فترة خطبتهن التى لن تجيء أبدًا . أما فى الجزء الذى يتعلق بى فقد انتظرت بشوق أن يخرج لى من بين الشقوق عبيط القرية الشهير الذى ينقذ كل مؤلفى الدراما عندما تتعقّد الأحداث ولا يكون لها مخرج سوى الدرويش الأبله أو الخبيث المتظاهر بالبلاهة بهراوته المزينة بذيل الجاموس والتمائم ومسبحته العملاقة وطرطوره الملوّن وملابسه التى بقيت من مخلفات العدوان ، يساعد بطل الفيلم أو أهل الخير فى المسلسل لمعرفة السارق أو القاتل أو الطاغية الملعون . يتم ذلك فى العادة بعباراته الغامضة وكلماته المشفرة التى يصدع بها رأسك من أول الرواية حتى يمل (أو يمل الكاتب) فيعلن ما لديه دفعة واحدة لنكتشف أن هذا المجنون هو الأعقل والأحكم (سبحان الله !) ألم يكشف عن ملابسات مقتل (قمر الدولة علوان) ؛ فما الذى أخّره إذن ؟!

لكننا ـ للأسف ـ لسنا ضمن أحداث عمل درامى ساذج ، فلن يظهر هذا العبيط المنقذ أبدًا ، لكنك بدلًا منه سوف تجد صاحب الطاحونة الذى حولها

إلى مقهى (نت) ! والجمعية التعاونية التى انقلبت إلى (سوبر ماركت) ومحل الجزارة المرصع بالنيون واللافتة المصنوعة بالليزر واللحم الملفوف بالشاش الأبيض ، حتى لو عاد عبيطنا العزيز ، فلا مكان له هنا !

صدقنى ، حاولت أن أصف لك ما رأيت من معالم القرية كما اعتدت أن تراه فى السينما ، لكننى لست ماهرًا فى الوصف ، ساعدنى فى ذلك التغير الكاسح الذى شمل كل تفصيلات المكان .

المحقق غايته الحقيقة وهى تتكشف من الكلام وكلما زادت غنيمته من الكلمات والأقاويل كلما كان طريقه أقصر ومهمته أسهل ، وأخذت مجلسى حيث منبع الثرثرة .. المقهى .

جاءنى صبى المقهى الذى كان يرتدى الجينز ورأسه محلوق على طريقة (كابوريا) بكوب شاى قذر له لون وطعم بول مرضى الصفراء ، شربته ببطء شديد وصبر أشد متأملًا فلاحة تسحب حمارًا على حافة الترعة المواجهة للمقهى ، جلبابها زاهى الألوان بشكل يثير الغثيان ، والذباب يتجمع حول روث البهيمة التى ترافقها ثم يتفرق ويعود إلى داخل المقهى المظلم فوق أحقاق السكر والبن والينسون ، تلميذ فى مدرسة ابتدائية يتشاجر مع آخر فيمزق له مريلته الكاكية ويُلقى حقيبته البنية فى الرمل ، تشب نار بين امرأتين تستخدم فيها ألفاظ جعلت الشاى المغلى يتحول إلى كتل من الثلج فى حلقى بينما راقبهما رجل فى أوسط العمر بجلباب رمادى مهترئ ثم أطلق ضحكة ماجنة !

امتد بصرى لأتابع شيخًا يترقى درجات مئذنة المسجد المتواضع لتعديل

وضع الميكروفون استعدادًا لإطلاق الأذان . عند نفس المستوى على سطح بيت من دورين ثمة رجل آخر يعدّل من وضع طبق معدنى ويصيح :

ـ « مضبوط ؟! »

يتابع صبى المقهى شاشة التلفاز ويجيب صائحًا بدوره :

ـ « تمام .. انزل يا (رجب) »

الواصل بينهما سلك الدش الأسود السميك ، وأمام التلفاز الملون ممتاز النقاوة تجمّع حشد من الشباب والرجال ، أكبرهم فى مرحلة الجامعة وأصغرهم كان الطفل الذى مزّق مريلة زميله منذ قليل . الرؤوس كلها مرفوعة لأعلى ، الأعناق تخشّبت فى زاوية بلهاء تشريحيًا كضفادع تنق ، المشروبات لا طعم لها والصبى النصّاب يغالط دائمًا فى الحساب ، « يا بيه ! إنهم يدفعون ثمنًا للمناظر الحلوة ! » ، الأفواه مفتوحة والعيون لا تكل . للقناة الغنائية تنوّع يثير العجب من المشاهد المكشوفة ، وثمة تكرار ملحوظ لأغنيتين مصورتين : (روبى) بمجموعة من الثياب العارية والأوضاع ، و(إيمينم) فى أغنية (اخرجى من دولابى) وموضوعها شاب يحفر قبرًا فى حديقة بيته لدفن أمه التى قتلها حالًا .

شعرت بتقزز هائل ونفور لا حد له لم أكمل معه كوب الشاى الردىء الذى رفعه الصبى من أمامى ووقف بسماجة ينتظر الطلب الجديد . حلبة هذه المرة . ولم أعدم واحدًا أو اثنين أستطيع أن أتجاذب معهما أطراف الحديث حول الأطفال الثلاثة المفقودين وأسرهم ، القوم هنا يعرفون خفايا بعضهم

www.riwaya.ga

البعض ، ولعل نقطة مهمة أخفاها أحدهم أثناء إجراء التحقيق رهبة أو إهمالا ، ولكن .. لا جديد ، بل إن أحد من تحدثت معهم راح يهرش رأسه متظاهرا بتذكر من هى (نجية على) : « آه .. ابنة (على الدمرانى) مزارع غيط (أبا عمران) ؟ .. كلا .. لا أعرفها »

حسوت الحلبة فى غيظ و(روبى) تلومه (طب ليه بيدارى كده ؟) وطمأنت الرجل أن التحقيق ودّى (بالطبع عرّفته بنفسى ، لا مجال للتخفى وادعاء أننى مجرد زائر أوروبى لقريتهم المدهشة ، إنهم يعرفون من أنا منذ وطأت قدماى أرض القرية) وهكذا يا رجل لا أوراق لدىّ ولا أمناء شرطة إننى حتى لم أتشرف بمعرفة اسمك بعد .. ما هو اسم الكريم ؟

ـ « (كريم) يا باشا ! صدقنى لا أعرف أى شىء عن الطفلة .. فقط أعرف أن أباها رجل طيب على قد حاله ، ادعُ له بالشفاء ، إنه طريح الفراش من أسبوع مضى ، يقولون إنه مصدوم .. لكن لا .. »

ـ « لماذا لا ؟ »

دخلت بذرة حلبة مُرّة بين أسنانى فبصقتها على الفور .

ـ « يا باشا ، الرجل كبير وفقير ولديه خمسة أبناء آخرين .. استغفر الله العظيم ، لعله كان يدعو لها بالاختفاء من يوم مولدها ، ولولا زوجته .. »

ـ « هل تعرف زوجته ؟ »

قاطعته وصبى المقهى يضع أمامه نارجيلة على حسابى .

ـ « الست (مديحة) ؟ .. المرأة كالزهرة شبابًا وجمالًا ، لا أعرف لماذا

ارتضت لنفسها الحياة مع هذا المُعدم فى الخرابة الضيقة التى يسكنها مع ثلاثة أبناء من زوجته الراحلة »

ورفع رأسه إلى التلفاز حيث (روبى) تتلوى بفستان أحمر شفاف ، مكرنش من أعلى ومن أسفل ، ثم راح ينظم شعرًا وعلى وجهه تعبير من اللوعة :

ـ « إنها تفاحة ناضجة تنتظر القطاف .. كالبدر ليلة التمام .. وأخيرًا ها هى تتعفن فى جحر الخنافس مع العجوز المقيت .. ماذا كنت تسأل يا باشا ؟ .. آه .. كلا ، لا أعرفها ! »

ربتُّ على ظهر كفه وسألته فى بساطة :

ـ « أصدقك ! .. ولكن ، ماذا أخبرتك هى عن الموضوع ؟ »

ـ « من ؟ » وسحب نفسًا عميقًا من النارجيلة وأخرج الدخان الأبيض من منخريه كنابى الفيل :

ـ « آه .. (مديحة) ؟! قالت إن الرجل لم يتأثر على الإطلاق بفقد ابنته ومارس عمله فى الحقل كالحصان فى اليوم التالى ، لكنه منذ عدة أيام جاءها محمولًا إلى الدار ، فاقدًا النطق وكأن شللًا أصابه ، حتى قدماه عجزتا عن الحركة ، بالأمس ازدادت حرارته وراح يهلوس بكلمات متقطعة مبهمة ثم ظهر بياض عينيه ، وغاب عن النهار ، قالوا لها أن تُبلّغ طبيب القرية لكننى أقنعتها بأنه لا رادّ لقضاء الله ، الرجل يموت ولا يمكن تأخير لقائه بربه ، فلندعه يرقد بسلام ، سمعت كلامى ، ألم أقل لك إنها امرأة طيبة يا باشا ؟ ثم إن كل شىء نصيب ، ونصيبها مع ابن حلال يعطيها حق قدرها ويجعلها تعيش

كالسلطانة، المرأة فى النهاية بحاجة إلى رجل من عمرها ، يفهمها ويحقق لها السعادة »

وتأمل أظافره القذرة فى هيام ثم عدّل من وضع ياقته المتسخة متابعًا :

ـ « .. كما أن الحب العفيف الطاهر لا يموت ، إنها تستحق شابًا قويًا يُقدّر جمالها »

وأخيرًا وضع ساقًا فوق ساق فسقط شبشبه البلاستيكى أرضًا من ثم أسرع يُنقذ موقفه فينزل ساقه المتفاخرة ، ويدس أصابع قدمه السوداء فى الرمل حرجًا ثم أرسل إلىّ نظرة خاطفة بركن عينه ، فلما تأكّد من أننى لم ألحظ ما حدث ، عاد يضع ساقًا فوق ساق وسعل بفخر صارخًا فى الصبى أن يُغيّر له الحجر الذى بدأ يخبو لهيبه .

ـ « ما رأيك يا باشا ؟ » ـ مشيرًا إلى التلفاز ـ « لا يوجد من هو أفضل من محسوبك فى تركيب أطباق الدش ! »

ـ « الله ينوّر ! »

ألف لعنة عليك ! ونهضت مسوّيًا بنطالى الذى تجعد من المقعد المُعقّد التركيب . وقفت لحظات أمام المقهى أطرد الذباب عن رأسى ورائحة الروث عن أنفى حتى لمحت صبى المقهى فدخلت أعطيه حسابه .

ـ « ما هو بدرى يا سعادة الباشا ! »

ـ « بدرى من عمرك »

وأخرجت من جيبى ورقة مالية صغيرة أضفت إليها خمسين قرشًا على سبيل البقشيش نفحته إياها وأنا أتناول كوب الماء من صينيته : « وجبت الصلاة لو كنت قد لاحظت ! » (وكيف يلاحظ وزنوج الدش يصرخون وفاجراته يتأوهن فوق رأسه ؟)

ـ « حرمًا مقدمًا »

وضع المال فى جيب قميصه مغتبطًا وقرر أن يهدينى شيئًا بالمقابل ، تظاهرت بشرب الماء بلا مبالاة : هلم يا فتى ، هات ما لديك .

ـ « بالمناسبة يا باشا ، بالمصادفة سمعتك تسأل عن الأولاد المفقودين . فليطمئن قلبك تمامًا ، صدقنى إنها ليست إلا دعابة عملية منهم ، ربما اتفقوا على الهروب معًا ، لقد أصبح الأهالى هنا ضيّقى الخلق و .. »

دعابة ! إذا فما لديك تخمينات لا أكثر ، شكرًا جزيلًا .

ـ « (نبيل) أصبح شابًا الآن ، أعرف أنه قد ضاق بأمه التى تعامله كطفل ؛ لكنه أصيل لا ينسى العشرة . » ومال علىّ هامسًا « لقد زارنى من يومين »

ـ « زارك ؟ »

ـ « لكنه كان متعبًا جدًا لدرجة أنه ظل صامتًا لا يرد السلام ، رغم أننى قد أخذته بالحضن ، لكننى لست ناقمًا عليه ، يكفى أنه لم ينسَ صديقه وأخاه الأكبر »

ـ « من رآه سواك ؟ »

ـ « الليل كان قد انتصف يا باشا وعدا عم (لطفى) الكفيف لن تجد أحدًا هنا بالمقهى ، يا للمسكين ، كان كالنائم ، ظل واقفًا يتابع (الدش) ودخلت أحضر له مشروبًا وعندما خرجت كان قد رحل ! »

أية لعبة تدور هنا ؟ إذا كانت أم الفتى تهلوس ، فهل يهلوس صبى المقهى كذلك ؟ لا أفهم ، لكن الحكايتين تتشابهان فى نقطة : الهيئة التى وصفها كل منهما للفتى العائد ، وهى أوصاف تزيد من غموض الواقعة بالكامل . شكرته على كل حال وهممت بالمغادرة عندما تذكرت شيئًا :

ـ « صحيح ، صاحبك نجم الدش .. تحدثت معه ، اسمه (كريم) : فلماذا ناديته بـ (رجب) ؟ »

ضحك الفتى وهو يغمز بعينيه :

ـ « ابن الأبالسة .. أمر الكل أن ينادوه هكذا بعد أغنية (هيفاء) الأخيرة ! »

***

لتحميل المزيد من الروايات الحصرية
زوروا موقعنا
www.riwaya.ga

« دعوة »

أشار (على) إلى صديقه بالصمت وتقدم بحرص وحذر يتبين ما وراء الجدار، ولسبب ما سرت رعدة فى أوصال (محمود) وهو يعتدل واقفًا ويتبعه ، أمّا (على) فقد ركل الكرة مسافة إلى الأمام مقدّرًا لها أن تستقر فى نقطة ما خلف الجدار . يعرف أنه يتأكد من هوية خيال فى بقعة متروكة ؛ لكنه أراد أن يصنع حجة مناسبة فى حالة كان وراء الحائط شيخ يتلو القرآن أو امرأة تغسل ، عندها ربما يكون مهضومًا أن يعتذر ويعلن أنه قد جاء لاستعادة الكرة الشاردة .

لكنه قبل أن يصل إلى الجدار ، عادت إليه الكرة بنفس القوة التى ركلها بها رغم استواء سطح الأرض ، فتلقاها تحت قدمه اليمنى ونظر إلى (محمود) بشك ، فهز الأخير كتفيه دهشة وحيرة وخوف ثم قال بصوت خفيض وهو يلمس ذراع صديقه : « أيًا كان الموجود خلف هذا الجدار فهو يعيد إلينا ما يخصنا راغبًا عن المتطفلين »

التقى حاجبا (على) وفى شىء من السخرية والعجب قال : « أو هو يريد أن يلعب معنا ! » وركل كرته فى ذات الاتجاه قبل أن ينتظر من (محمود) جوابًا، وببطء شديد تتدحرج الكرة الصفراء عائدة .

— « هل رأيت ؟ فلنرَ إذًا الزميل المجهول »

يقتربان وشىء أشبه بالاختناق يشيع فى الهواء ، ربما هو روث الماشية أو بئر الصرف القديم ، وفى شك يتمتم (محمود) : « أعتقد أننا لا يجب .. » بتر عبارته بغتة عندما شاهداه يقف أمامهما .

***

صبى فى مثل عمرهما ، تعجَّب (محمود) أن يجده أكثر نحولًا منه هو نفسه ، كأنه خيال مقاتة بجلبابه الرصاصى فى لون الضباب الثقيل ، ولسلطة اللون المعتم استحال وجه الصبى رماديًا كذلك ، أو هكذا بدا . فقر الدم يجعل الجلد شاحبًا هكذا ، رموشه طويلة سوداء لامعة ، لكن عينيه رماديتان كذلك وكأن أحدهم قد رش التراب فوق قرنيتيه ، شفتاه غامقتان بلون التوت .

ـ « لا مؤاخذة يا كابتن .. لم نعرف .. » فى حرج ضعيف وحب استطلاع .

ـ « أهلًا بكما » صوته قوى رنَّان رغم أن الفتى ليس إلا هيكل يضم من الروح نسمات خافتة .

***

لفحة ريح حارة جففت العرق الذى ألصق الثياب بالجلد وكنست أوراقًا جافة وأعواد برسيم وضايقت كلبًا يقع فى ركن قصى ، وبقلق تابع (محمود) بعينيه سربًا من الحمام يصهر ريشه المغبر فى الغيم المغموس بالتبدُّل ثم يختفى خلف القبة العالية لبيت انتصب ملفوفًا بالعتمة وكأنه رجم ضخم سابح فى جنبات الكون .

ـ « تشرفنا يا (سلمان) » وصوب إليه (على) الكرة « ولكن لماذا لم نركَ أبدًا فى المدرسة أو فى الكَفْر ؟ »

أرسل إليه الفتى الشاحب الكرة بركلة من قدمه المتوارية خلف ذيل الجلباب، وكان سعيدًا برفقة اللعب أيما سعادة : « لا أخرج كثيرًا من البيت ، ولا أذهب إلى المدرسة ، مات أبواى منذ سنوات طويلة ، وأسكن هنا مع .. مع عمة لدىَّ لا تسمح لى بالابتعاد أكثر من هذه المسافة التى التقينا فيها . وإذا لم يأت أىٌّ منكما إلى هنا ، ربما ما تعرَّفنا أبدًا .. » وتلقَّى الكرة من جديد ثم رفعها بقوة مسجلًا هدفًا فى مرمى رسيله « .. وما حظيت بصحبة رائعة كهذه » وضحك .

نهض (على) من الأرض المتسخة بعد فشله فى صد الكرة الموجَّهة بحذق نحو هدفها وركض عدة أمتار يعيدها ثم جاء حاملًا إياها وتبادل مع (محمود) الجالس يراقب فى صمت نظرة تحمل رسالة سريعة : إنه يكذب !

كل الأولاد يكذبون فى مثل هذه السن ، لكن هذا الفتى الغريب يكذب فى كل شىء ، كل ما رواه عن نفسه كان كذبًا ، كيف يكون ساكنًا لهذا البيت العملاق ـ إذا كان له سكان من الأصل ـ وهو يبدو فى هذه الهيئة الرثة ؟ وكيف يدَّعى أنه (طفل ـ العمة ـ المدلل) المحبوس فى الدار لا يعرف أولادًا وهو يلعب الكرة كالجِنّ ويسجل أهدافًا كلاعب محترف فى (على توفيق) شخصيًا ؟!

وبشكل ما تعاطف (محمود) مع الفتى وقدّر انه ابن أسرة معدمة تسكن الخلاء وهو يتظاهر بوجود أصل أنقى وأرقى له ، لكن هذا أيضًا لا يبرر مهارته النادرة فى التحرك بالكرة ! شيطان حقيقى !

نذر الشر تتطاير ، الصبى سجل هدفًا قويًا ومتقنًا أرسل الكرة إلى الوراء أمتارًا كثيرة ، فنهض (على) يمسح العرق عن جبينه وهتف : « لا يحتسب » بعصبية وهو يركض خلف الكرة حتى لا تبتعد ، فتوقف الفتى الذى رفع ذيل جلبابه استعدادًا لعودة خصمه بالكرة .

ـ « ماذا ؟ »

ـ « قلت إن هذا الهدف لا يحتسب .. الكرة عالية جدًا .. (هاى) »

ـ « ولكن .. »

ـ « لا لكن .. قلت إن الكرة كانت مرتفعة وهى كذلك . »

ثم ألقى الكرة بغيظ فى منتصف الساحة ، لكن (سلمان) لا يتحرك نحوها وتبادل النظرات مع (على) و(محمود) يطلب تحكيمًا ؛ فغمغم هذا الأخير حقنًا للدماء : « اهدئا .. ربما نعيد .. »

ـ « كان هدفًا ! » بثبات شديد ، بهدوء شديد . فصاح (على) بعصبية وهو يركض نحو الفتى ، ثم يقفز فوقه قابضًا على ياقة جلبابه ينوى تأديبه : « ألحسب نفسك نبيهًا يا ابن الـ .. ؟ »

اندفع (محمود) يحجز بينهما ، لو ترك (على) بعضلاته المفتولة وجسده المتين ينفرد بالفتى المتهافت لفتك به فى لحظات .

ـ « اسمع يا هذا .. لا أعرف ما هى قصتك بالضبط .. لكنك كاذب .. وغد تافه يلفق حكاية خائبة .. وأيضًا تلعب بشكل سيئ ! »

ـ « أنا لا أكذب ! »

وحرّر ذراعه من يد (محمود) التى حجزت عن الصبى الغريب بطشه ثم مال على الأرض وتناول الكرة المطاطية الصفراء المبقّعة وتركها تسقط ثم أدركها بركلة شديدة العنف أطاحت بها إلى عنان السماء :

ـ « لا تكذب ؟ هه ! »

تابعها (محمود) بعينيه وهى تسقط خلف سور البيت الكبير !

نعق غراب وانتفض سرب من طيور شاذة التكوين وحلّق مبتعدًا ، صوت كركبة وكأن الريح يدحرج عددًا من البراميل فى الأفق ثم (كروووووو) ضعيفة جدًا لكنها تصل إلى الأذن فينعتق الخوف من سجن البدن ويتجسد ، لكن الغضب الحار له صوت مختلف . (على) بوجهه الأحمر المحتقن بلون البرقوق يمد يده أمام (سلمان) فى غيظ وسخرية :

ـ « لماذا لا يتفضل ابن الأكابر بنداء عمته فتعيد لنا الكرة لنواصل مباراتنا الودية ؟ »

رأى (محمود) أن فى هذا التهكم قسوة مبالغة ، لكن الصبى فعل آخر شىء كان يتوقعه ؛ فتحة فمه اتسعت من الأذن إلى الأذن فى ابتسامة راضية وقال بصوت بدا جديدًا (ربما غليظًا أكثر ، ربما رنانًا أكثر) : « بل إن لدىّ اقتراحًا أفضل ! »

وعاد السرب يحط ، وتدحرجت البراميل الخفية مع كركرات الريح .

ـ « .. لماذا لا تتفضلا بالدخول معى ، أقلّه نقوم معكما بواجب الضيافة ؟! »

ثم نعق الغراب .

***

« مـاضٍ »

جنازة (على الدمرانى) تُشيَّع اليوم . البنت تختفى والأب يموت فى شهر واحد . لا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم . شيخ الزاوية يخرج للمرحوم كفنًا من تجهيزات المسجد المُدخرة للفقراء ، ويدفن الرجل فى هدوء تام لا يشيّعه صرصور ، ربما لا تعليق من أى أحد كذلك عدا امرأة بدينة كالحلُّوف نظرت لزوجة الراحل الشابة شذرًا وغمزت لجارتها بعد مصمصة الشفتين : « القادرة ! قصفت عمر الرجل مبكرًا ! »

استأذنت فى حديث قصير مع الأرملة التى توقعت أن أجدها واحدة أخرى شاحبة الوجه ، قذرة البشرة والثياب ، لكننى أفاجأ بها جميلة حقًّا . بيضاء كالكريمة واتضح ذلك أكثر فى زى الحداد غامق السواد ، الرموش أجمل من أن تكون اصطناعية ، مكحولة لسبب آخر غير الرمد ، للعين نظرة ساكنة مستسلمة آسرة (واثقة !) تجعلها تستحق أن تتربع على عرش الخد المتورد .

بدأت ظنونى تتأكد ، الفأر الذى كان يلعب فى صدرى جمع عددًا من زملائه وجعلوا من صدرى ملعبًا والصوت الذى يعرف أكثر يهمس فى عقلى : ها هى الحكاية القديمة المتجددة ، الطفلة تباع للكهل توفيرًا للنفقات وسترًا لعار قد تلحقه بأبيها يومًا ، أليست أنثى ؟ كلهن أخوات للشيطان ! ويتضح أن ظل الرجل ليس أكثر من مجرد ظل ، تتقدم بهما العمر ، فتحنى السنون ظهر الرجل وتنثر الدقيق على شعره وتملأ صدره بالبلغم والدخان والقطران وتضع فى قدميه جوربين من الدوالى الممتدة كثعابين زرقاء مثل وشم أسطورى مرسوم

لحراسة مملكة الفقر الأزلى . نفس السنوات تفعل فعلها بالطفلة ، تزيدها طولًا وتفرد لها الشعر على الكتفين وترقق الأحبال الصوتية فينعم الكلام ، وتدب فى ثنياتها وثناياها حرارة الشباب بينما تطوى العادة رغبة العجوز ويتسلل إلى روحه الإعياء وتتثاءب الكراهية فى أركان الدار الصغيرة . الزمن طويل ، الزمن ثقيل والرجل لا يموت ، وسنة الله لا تتبدل ، يلوح الشبان من حولها ، لكن الخلاص الوحيد مع ملك الفناء ، فإذا لم يأتِ من تلقاء نفسه ، يمكننا استدعاؤه ، طبعًا بمساعدة بسيطة من وحش الدِش ـ كريم الشهير برجب .

يتسلل ليلًا ليخنق الرجل بوسادة فيضربان أربعة عصافير بحجر واحد : للزوجة حجة غياب فتتم براءتها إذا لاح الاتهام من بعيد وحولها هام ، تخرس أنفاس الرجل العجوز البغيض دفعة واحدة فيتم التأكد من موته فى الحال وتكتم صرخاته كذلك ، لا يترك فى موضع الجريمة دماءً ولا فى معدة الضحية أثرًا لسم ، تعلن الوفاة على أنها ذبحة صدرية أو أزمة ربو شعبى لم تسعف فى الوقت المناسب . وتحصل الزوجة الجميلة على حريتها وبعد الوفاء بالعدة تنعم بالحياة التى تستحقها فى ظل الفارس الذى حرَّرها من التنين المسن !

كل ذلك بديهى .

وهذه هى مشكلته الأساسية للأسف !

***

قد بدأت أتحمس لتخميني المُنظَّم حتى بدا منطقى يتداعى ، فبينما كنت على وشك إضافة بندًا جديدًا لمسلسل الاتهامات فى رأسى وهو أنه ربما يكون

(كريم) و(مديحة) قد تعاونا فى اختطاف الطفلة (نجية) لإلقاء الحسرة فى قلب الأب، رغم أن ذلك لا يفسر اختفاء الطفلين الآخرين (الطفلة والمراهق أعنى) لكنها خطوة فى قضيت.

ـ «(نجية) كانت ابنتى!» تمتمت (مديحة) بذكاء متفاهم أدهشنى. «للمرحوم أبناء من زوجته الأولى، لكن الطفلة الضائعة هى ابنتى منه»

دخلت أمها العجوز ووضعت أمامنا صينية الشاى، هم أفقر حتى من أن يبتاعوا بُنًّا! فلا داعى لترف المآتم الشكلى.

ـ «كلنا جزعنا لسقوطه المفاجئ ذلك اليوم فى الحقل»

ونظرت بعينيها فى عينى مباشرة فرأيت أنهما سوداوان عميقان بعيدان، فيهما من التحدّى ما فيهما من الاستكانة، وبأطراف رموشها المرخية أشارت إلى أمها التى تربعت فوق كنبة قريبة منا تنقّى أرزًا وتعبث فى قفاها من حين إلى آخر بحثًا عن القمل.

ـ «أمى هى التى كانت بحضور المرحوم لحظة خروج روحه. لا تظن بى جحودًا يا سيدى؛ لكننى عندما دخلت عليهما عرفت من نظرتها أن أمر الله قد نفذ لكننا كنا ننتظر ذلك، لا أعنى كنا نتمناه، كنا نتوقعه والرجل يذوب أمامنا كل يوم وروحه تتفتت حتى لم يبقَ منه سوى جسد مريض من رحمة خالقه أن أذن له بالراحة»

إنها لا تكذب. يجب أن تمنح نفسك هبة الشك فى بعض المواقف، خاصة المجنونة منها، وأنا أشك فى شكى بها، ربما ليست تلقائيتها، بل على العكس،

هو ذكاؤها ، امرأة تتكلم بهذه العقلانية لن تورط نفسها فى قتل جثة ، الحمقاء وحدها هى التى تسحق بخفها صرصورًا يترنح بفعل المبيد الحشرى . هى مخلصة وصبور كذلك ، صفتان ترجحان نفى وقوع الجرم من الأساس .

ذُقت الشاى فوجدت طعمه ممتازا ، إذا كان الذى أعدّه قد وضع فى نيته أن يصنع القليل من الملوخية ! وطفقت أتأمل الدار الخالية لأمنح عقلى فسحة من الوقت يعيد فيها تقدير الأمر ويبحث عن سؤال . البط ينقر حذائى ورائحة البصل تهمس : يا بخت من زار وخفف ! فلّاح بالخارج يبدو كعود نحيل يأكل جذره الطين ، بخار طعام يُعد ، تيار من الهواء الساخن يدخل من الطاقة الطينية فيحرّك زوجًا من الحمام نام بسلام فى زلعة مكسورة ، سائل أصفر لا أعرف طبيعته أو مصدره يمتد من تحت عقب أحد الأبواب ، سيكون فضولًا زائدًا أن أسأل ، لن أسأل ، بالخارج مذياع يبعث صوتًا أنثويًا يغنى : (إيه ؟! قول تانى كده !) حركت كوب الملوخية فى يدى وقررت أن أرحل إذ لاحظت المرأة الكبيرة تنهض من فوق كنبتها وفى يديها صينية الأرز المنقى ، نظرت إلى الوجه الحسن فتعلقت بى العينان المرسومتان وحانت منها التفاتة سريعة شيّعت أمها إلى حيث ذهبت وعادت إلىّ تزمع أن تخبرنى بشىء ما .

ـ « لا أعرف .. ربما اتهمتنى بالخبال .. لكن .. » سكتت وراحت تضغط بيد على الأخرى فى حجرها ثم قالت وهى تنظر فى عينى بلهجة (لا ـ تقل ـ إننى ـ مجنونة ـ من ـ فضلك) : « فى تلك الليلة خرجت من المطبخ حيث كنت أعد شيئًا للمريض وقبل أن أدخل عليه كادت الشوربة الساخنة تسقط من يدى

لتسلق قدمى .. عند باب الحجرة رأيت (نجية) ، كما هى قبل يوم اختفت، لكنها بدت غريبة جدًا ، لا أعرف لماذا ، ربما هو الضوء ، وربما لأنها كانت للمرة الأولى تترك فستانها مفتوحًا على الصدر وكنا نربيها على أن تحكم إغلاق كل أزراره حتى وهى لم تزل طفلة بعد ، وأيضًا تعبيرات وجهها ، غاضبة ! لا ، بل شرسة نوعًا ما ! تركت الوعاء من يدى واقتربت منها أحاول أن أفهم معنى غيابها وظهورها ، لم أسارع فى احتضانها .. لا أعرف ، ربما لن ترى هذا غريبًا بعد ما قلته لك عن هيئتها ، لكننى شعرت بأنها ليست هى ، ولكن من هى ؟! أبعدتنى عنها بعنف مباغت ، حاولت إمساك ذراعها لإبقائها .. لكن .. لكنها عضتنى عضة مؤلمة وما كدت أتبين موضعها حتى اختفت من أمامى ، تلفتُّ حولى فوجدت الباب مغلقًا وكذلك النوافذ التى ترتفع عن الأرض كثيرًا ، هززت رأسى غير فاهمة وتناولت الحساء ودخلت على زوجى .. وجدته هذه المرة شاحبًا أكثر ، مريضًا أكثر وكانت أمى التى جلست بجواره تمر بسِنة خفيفة ، أيقظتها وأنا أدرك أنه هو الآخر يغط فى النوم ، ولكنه نوم بلا يقظة هذه المرة ، أسيادنا فى العالم الآخر كانوا يسحبونه بإصرار فى هذه الأثناء ، أمى وأنا سمعنا آخر حشرجة فى حلقة ، هبط صدره مع التنفس البطيء وأرتفع ثم هبط من جديد ولم يرتفع أبدًا . عرفنا أن السر الإلهى قد خرج ولم نعد فى حاجة لإقلاق مضجعه لينعم بالحساء الساخن » .

إن ما تحكيه هذه السيدة الجميلة عجيب . طابعه مخيف يثير فى النفس الامتعاض . تهيؤات ؟! نعم ، هى كذلك ، لكنها ـ صوتها وحسنها ـ يقولان إنها

صادقة ، ربما ما رأته غير حقيقى ، لكن ما قالته عنه حقيقى . حقيقى مثل لفحة الريح الحارة التى تدخل الدار كل خمس دقائق لتحرك ريشات الطير وطرف طرحتها السوداء ورائحة الثوم المحمر فى كوب الشاى .

ـ « لا أعرف يا سيدى لماذا أخبرك بكل هذا ؟ » ـ ملامحها غاية فى التناسق ـ « ربما لأننى أعرف أنك هنا من أجل (نجية) وليس المرحوم ، وأعرف أنك تظننى واهمة فيما رأيت ، أنا نفسى قلت ذلك وأنا أحاول طرد الحادث الغريب من رأسى .. ربما كان هذا مجرد وهم .. »

أنهيت شرب الملوخية وبالخارج تداخلت الأغنية (حبنا .. عشقنا .. انت بتتكلم عنّنا) مع آيات قرآنية أذاعها أحدهم بمناسبة الوفاة تتحدث عن قرية ظالمة أساء أهلها إلى أنفسهم فأنزل الله بها سوء العذاب ، ومدّت الأرملة الحسناء كفها إلى ، يدها بيضاء ناعمة بضّة .

ـ « ربما كان وهمًا .. ولكن .. هل تترك الأوهام أثرًا كهذا ؟! »

وأشارت إلى جلدها الرقيق الدقيق الأملس ، فقرّبت وجهى ورأيت على ظهر كفها خطين غامقين منحنيين متواجهين متكونين من أسنان صغيرة جدًا مغروزة فى اللحم ، أثرًا لعضة قريبة جدًا وشرسة جدًا .

***

نظراته تتسلل فى قلق ، حتى جمال (فضيلة) الخلّاب لا يلهيه ، تمد يدها لتقبض على راحته فيسحبها بلطف وبتوتر يقول لها :

ـ « تأخر (محمود) كثيراً » .

تلم شعرها وتغادر الفراش وتهدئه ببراءة :

ـ « بالتأكيد هو مع صديقه (على) .. أم أن الصبى الهارب يزعج (سيد الخضراوى) عملاق قريتنا ؟ »

ـ « أو لا يزعجك أنت ؟ .. هناك طفلتان كذلك »

ثم ينهض ليفتح النافذة ، يداهمه هبوط الشمس فيستحوذ عليه القلق أكثر وهى تحاول أن تطمئنه بلهجة خدعتها :

ـ « أعرف . ولكننى ربيت ابنى جيدًا فلن يضيع كما يفعل الأطفال البائسون أبناء الفقر واليتم والإهمال .. وأنت كذلك تعرف يا (سيد) .. »

الظل يتحرك فى العتمة بالخارج .

ـ « (سيد) ؟! »

الظل يختفى ، يلتفت إليها ، تهم بأن تقول شيئًا لكن طرقات على الباب تسبقها فتهتف مسرعة إلى الخارج :

ـ « ها هو قد جاء ! »

هل لاحظت أن طرقات الولد مختلفة نوعًا ؟ ـ فكر (سيد) وهو يسمع الباب يفتح ثم لا يسمعها تلوم الفتى الذى عاد متأخرا ، هذه التى ربت ابنها جيدًا . يا للتدليل ! يترك مكانه ليرى ماذا دها هذا الصبى لكنها تدخل عليه حتى كاد يصطدم بها .

ـ « ليس (محمود) .. بل ضيف يريدك »

ـ « ومن هو ؟ »

ـ « يقول إنه .. صديق قديم ! »

***

لدى خروجى من مملكة الفقر تلقّيت حيرتى ولم أفهم ، حملت النسمات الساخنة روائح جبن أبيض وحرق بوص وروث ماشية ، مستحيل أن تمطر السماء فى حر كهذا ، حتى السحب كانت تبدو مثل قطن قذر مندوف ، صفراء مسودة ممزقة ، حفنة من النساء يصفقن بابتذال أمام أحد الأبواب وإحداهن ترقص حافية وهى تغنى إحدى أغنيات الأفراح المليئة بالإيحاءات ، أجملهن كانت أقبح من القرد ! لا معنى لأن أقلق حول أمور لن يمكننى السيطرة عليها .

هممت بخلع جاكتتى فور وصولى إلى المخفر عندما أدركنى ضابط الشرط سائلًا باهتمام :

ـ « هل عاينت مسرح الجريمة ؟ »

يا له من غر ساذج ؛ على كل حال يغفر لشاب حديث العهد مثله : « جريمة ؟ كلا يا عزيزى ، الأمر نظيف تمامًا .. »

تمتم فى حيرة مداعبًا ذقنه الحليقة :

ـ « ولكن .. ! »

قاطعته واضعًا جاكتتى فوق ظهر المقعد :

ـ « .. نعم ، أنا أيضًا ساورتنى الشكوك فى البداية ، وحتى بعد لقائى بالسيدة (مديحة) فكّرت فى الذهاب إلى صبى الفواحش : (كريم) أستاذ الدش ، لكنه

وقت الوفاة كان ينشر بركاته فى بيت جديد ، أسرة الشيخ (صلاح) أكدت أنه كان فى دارهم يقوم بتركيب (وصلة) جديدة من طبق الدش الذى يضعه فوق دكانه ، هذا ينهى المسألة »

غمغم الشاب غير فاهم :

ـ « ولكن .. ما علاقة (كريم) و(مديحة) بالموضوع أصلًا ؟ »

كتمت ضحكة هازئة ، هكذا الشباب المتحمس ؛ شكوك تتفاعل وحقائق تنقص ، تأملنى لحظة وأنا أنوى أن أعلّمه شيئًا عن التروّى ، وبينما أخذت نفسًا عميقًا لأبدأ الدرس بادرنى :

ـ « إننى أسأل سيادتك عن الحاجّة (أم نبيل) .. الولد الضائع .. وُجدت مقتولة فى حظيرة دارها منذ ساعتين ! »

***

« جثـــة »

الفضل يعود إلى (أطلس الطب الجنائى) الذى سلّموه لنا فى كلية الحقوق، كان كتابًا عملاقًا ردىء الطباعة ، صوره مموّهة غير واضحة ، لكنك ترى فيها أشكالًا متنوعة لضحايا القتل والانتحار والتمثيل بالأبدان الميتة ، لكننى لو لم أعتد النظر إلى هذه اللقطات المقرفة لما تحمّلت ما شاهدته الآن أبدًا .

بالكاد أمسكت نفسى عن القىء عندما رأيت جثة (أم نبيل) ملقاة بحقد وسط روث الأبقار ، لا يمكن أن تكون نوبة قلبية هذه أيضًا ، لأن الطعنات العديدة فى أماكن متفرقة من الجثة تعلن بشكل قاطع عن غل حقيقى ، وأكثر ما يثير التقزز هو أن معظم الضربات جاءت فى مواضع الغرض الأساسى منها هو التشويه لا القتل .

لا ملاءات بيضاء فى مكان قذر كهذا ، غطوها ببطانية رمادية ثقيلة وحملوها إلى الطبيب الشرعى بالوحدة الصحية ، المنتدب من قبل وزارة الداخلية ، وقبل أن يزيحوا الغطاء على وجهها الممزق الملوث بالدم المتجلط والسائل فى بعض مجاريه ، رأيت على قسماتها تعبيرًا شنيعًا من الألم الممزوج بالدهشة والرعب .

الوجوه المريضة حشرت نفسها عند باب الحظيرة والذباب يحوم حول أنوفهم وينتشر مع الرائحة الكريهة التى غطت المكان حتى أننى قد أخرجت منديلى ووضعته فوق فمى وأنفى . ظننت لجزء من الثانية أن ظلًا أحمر غير

بجوارى ، لكننى لم أتبين حقيقته مع شحوب الضوء وانصراف حواسى إلى نتانة الرائحة والتعليقات المقتضبة السخيفة لحفنة الجهلاء الحفاة السعداء بعصبية .

بقع الدم الداكنة شريتها فضلات البهائم ، وما من أثر لخطوات داخلة أو خارجة ، أزحت ضلفة خشبية فواجهت رأس ثور حاد النظرة رمقنى بتحدٍّ وأطلق خوارًا غاضبًا . لا شىء . بقى أن تنتظر تقرير الطبيب الشرعى ربما عرفنا أكثر .

« أوووووووووه »

انتظرت أن ينتهى خوار الحيوان حتى أسمع ذلك الصوت بشكل أوضح ، لكنه لم يتكرر . كان صوتًا غريبًا خافتًا بعيدًا ، صوت أنثى تتألم أو تتأوه متحسرة على فقدان غالٍ .

أمرت رجال الشرطة أن يصرفوا الجمع وعيَّنت أحدهم لحراسة المكان وقبل أن تتحرك بنا السيارة لمحته واقفًا تحت تلفاز المقهى .

***

ـ « أنت ؟!! »

هتف والمفاجأة المقيتة ترسل شعاعها الأسود فى دوائر . لو تجسدت خواطر الباطن لنشرت غيلانًا مشعَرة فى الحجرة من حولهما ، بالنسبة له انتهت التجربة . ولكن من قال إن الطُرق تحمل مفترقًا واحدًا ؟

عندما دخل حجرة الضيوف يستقبل زائره القادم على غير ميعاد ـ لم أن الموعد كان مؤجلًا من زمن مضى ؟ ـ يجده واقفًا موليًا له ظهره يتطلع إلى برواز كبير يحمل صورته هو وابنه .

احتدمت العواطف وانبعثت الذكريات واشتد اضطرابه ورأى أن قدرة خارقة تلزمه ليتمكن من السيطرة على نفسه وإلا تلاشى وجوده هو شخصيًا فى ظل رجل الماضى .

يدير ظهره ويبتسم بغموض ، إنه هو ، لم يخدع نفسه ولن يفعل .

ـ « ابنك يشبهك تمامًا .. أعنى عندما كنا فى مثل عمره .. بارك الله لك فيه »

غمزات شياطين الماضى وهمسات ملائكته تطرق أبواب ثباته . لماذا جاء ؟

جلس بهدوء دون أن يعرض عليه ، أغلق هو الباب فى إحكام وعاد يجلس فى مواجهته .

ـ « ماذا بك يا أبا (محمود) ، أهكذا تلقى أصدقاء زمان ؟ »

اسم ابنه على لسان (عبده المدنى) يحرك قلقه وينبئه أن هذا الشبح كان يحوم فى البلدة منذ فترة مكّنته من جمع المعلومات عنه .

ـ « يجب أن أعرف كل شىء عن رفيق العمر .. أليس كذلك ؟ »

حلقه جاف لم يتعمد خشونة لهجته :

ـ « ألم يستقر بك المقام فى القاهرة ؟ »

قال بوجد تمثيلى :

ـ « إنه الحنين ! »

لم يرد وثبت فى عينيه نظراته حاملًا إليه رسالة : لماذا جئت يا (عبده) ؟ الذى كان بيننا ؟ نتمنى أن يشتعل قطار الحنين قبل أن يتحرك بنا فوق قضبان الأيام ، قبل أن يجلب إلينا ذكرى مشئومة . وهو مستمر فى الترحيب بنفسه :

ـ « مشيت على الأشواك وجئت لأحبابى ! »

منذ متى وأنت تعترف بأن لك جذورا يا (عبده) ؟

وانفتح فى جدار الذاكرة باب ...

***

..الحقيقة أن (عبده المدنى) كان بليدًا تنبلًا وقليل الحياء ، فسرعان ما طرد من الكُتّاب ولم يفلح فى المدرسة . ولم يكن (سيد الخضراوى) متفوّقًا لكنه كان أمينًا فى أداء واجباته على الأقل ، وبينما كان يحظى يتيم عائلة الخضراوى على العطف والشفقة كان ابن (المدنى خليل) الذى عاون الإنجليز فى وقت الحرب يحترف الصعلكة رغم صغر سنه . يقامر بقلب العملة فى الهواء ليظفر بشطيرة ، يحفظ النكات البذيئة ليفوز بلفافة دخان أو كوب شاى على المقهى الذى عاش فيه حياته تقريبًا عندما تزوج أبوه من امرأة تحت مستوى الشبهات . ربما لم تختفِ شقاوته أبدًا إلا مرة واحدة فقط كانا يجلسان فيها فى ركن مظلم يشاهدان بالتلفاز الأبيض والأسود فيلم (الخطايا) ، كان (عبده) يتابع نمو قصة الحب بين عبد الحليم حافظ ونادية لطفى بانفعال حتى كادت عيناه تدمعان بينما الأب عماد حمدى يقف حائلًا أمام هذه القصة . وقتها عزا هذا

الاهتمام لنهاية الفيلم التى تغازل حياة الضياع التى يعيشها (عبده) والهمسات الخبيثة عن والده المشبوه وأمه التى طفشت فى ليلة غاضبة . أدمن أنفاس الحشيش وصحبة أبناء الليل وراح يتنقّل عدة مرات إلى العاصمة فى زيارات يزعم أنها لأقارب مشرّفين عثر عليهم أخيرًا بينما يجزم الكثيرين أنه يمارس مشاريع غامضة ونشاطًا عليه طبقة كثيفة من الغبار .

ـ « صدقنى يا (سيد) ، لى أهل من علية القوم »

أقنعه بأنه يصدقه تعاطفًا مع وضعه المتردى ولم يفكر حتى فى هل هذا حقيقى أم لا ، لكن (عبده) يصدق هذا تمامًا حتى راح يغنى مرة فى نوبة سُكْر : « وأيام تيجى على ابن الأصول ينذلّ ! » .

تمر الأيام مسرعة ويتولى (سيد الخضراوى) تجارة عم له فتضمن له حياة معقولة ويغيب (عبده المدنى) فترات طويلة فى العاصمة يعود منها زاهى الألوان مستبدلًا بقبعته الصوفية شعرًا ملفوفًا مدهونًا بالفازلين وسوالف تناسب وجهه الوغد على موضة السبعينيات حيث راح يتلمّس الفرص مع أغنياء الحرب ويزور علب الليل بانتظام وينفجر من الضحك الهستيرى فى سينما (أوليمبيا) وهو يشاهد (عبد الحليم حافظ) ووالده (عماد حمدى) يتبادلان الليالى الحمراء مع غانية متهتكة تلعب دورها (نادية لطفى) ثم يبكى ويتقيأ بعنف ويُطرد من دار العرض حتى يعود إلى القرية بعرض ملعون للوحيد الذى ارتضى به صديقًا . صفقة شيطانية أطرافها هو و(سيد) ورجل أعمال شهير كان منتجًا للسينما وامرأة إسرائيلية . (عبده) لم يقرأ فى حياته جريدة لكنه كان

يتلقى معلوماته باهتمام مخلص فى المجالس التى يرتادها ، قوة ذاكرته وخفة دمه الحاضرة جعلتا له إصبعا فى كل مكان ، غامر بتجربة السفر إلى بيروت ولم تكن تجربة عقيمة : هناك تعرف على (ريتا عرمونى) راقصة استعراض بشارع الحمراء وممثلة فى أحد الأفلام الرخيصة ، أوقعها فى حبائله أو وجدت فيه مهرجًا مسليًا . لا يهم ، المهم أنها قد كانت همزة الوصل بينه وبين (إلياس خياط) المنتج الذى ضمن أن يطول تعامله معه لفترة كافية طالما هو يمده بأرقام تليفونات وعناوين هامة كان يجمعها فى مناسبات مختلفة فى القاهرة والسويس والإسكندرية ، نوعًا من تبادل المنفعة الشهير بين الفطريات والجذور العفنة ، أما النفع الأعجب فكان عندما التقى على مائدة هذا المنتج بفنانة اسمها (زينة عماش) ، لم يكن جمالها كبقية الشاميات ، تكوين وجهها أخبره أن لها أصل أجنبى ، تظاهر بأنه يصدق أنها من عائلة سورية كما زعمت لكنه تعلم أن يشترى ولا يبيع ، أن يسمع ولا يتكلم ، أن لا يصارحك بكذبك وإن كان واضحًا حتى لا يخسرك . مهما كنت تافهًا ، فأنت تحمل معلومة تهم (عبده المدنى) ، ومهما كنتِ فاتنة فلا يمكنك إغراؤه لدرجة أن ينحرف عن مصالحه .

فى حجرة (زينة) الخاصة بالفندق تركته لتأخذ حمامًا وعندما عادت تأملت وجهه الجامد الملامح دقيقة كاملة وهو يحرّك الرمز المسنن الذى وجده فوق فراشها بين يديه ، ضحكت وهى تقترب منه :

- « هل تكرهون اليهود ؟ »

ابتلع ريقهُ بسرعة وركّب ابتسامة على شفتيه :

ـ « أنا عن نفسى لا ! »

وفى سرّه هتف : اللعنة ! لم يزل دخان الحرب معلّقًا فوق مصر وجيرانها والمتعاملين مع الأجهزة المعادية يشنقون بلا مناقشة .

أطفأت نور الحجرة فغرق فى الظلام ، لكنه رغم قلقه لم يستطع جشعه أن يتراجع ، ليست الجاسوسية وحدها هى السبيل لملء جيوبه بالعملة الأمريكية الساحرة !

يبيع (سيد الخضراوى) دكانه ويصفى تجارته التى لم تكن تدر عليه الكثير أملًا فى الثراء الذى يعد به (عبده) وهو يزغلل عينيه بالحلم :

ـ « لا حلاوة بغير نار ولا رغد بدون مغامرة ! »

يعانى (سيد) من تعليقات أقربائه لإقدامه على هذه الخطوة العجيبة ، ويزداد شعوره بالندم عمقًا عندما يطول غياب (عبده) بماله الذى زعم أنه سوف يعمل على تنميته .

ثم جاء الانفتاح عندما بلغ ذروة اليأس ، يلقى (عبده المدنى) أمامه بعشرات الرزم النقدية حتى كاد قلبه يتوقف من المفاجأة . ويثمل بنشوة الثراء المباغت حتى إنه ينسى تكرار السؤال على (عبده) عن طبيعة هذا الاستثمار ، وتعاد المغامرة حتى يبدأ فى الانتباه إلى ما يقال دائمًا عن (عبده) ويخشى أن تنزلق قدمه معه فى مشكلة معقّدة تقضى على مستقبله ، خاصة وهو قد تزوج قريبًا من (فضيلة) كريمة أسرة (عبد الله التقى) ، وهذا سبب آخر فى

اتخاذ جانب الحذر من (عبده) الذى لمح الحقد فى عينيه ، وسمعه فى ليلة زفافه وهو يقول فى قحة :

ـ « ابسط يا سيدنا .. تزوجت ست الحسن والجمال »

يتبرم فى وجوده ثم يرفض مقابلته ولم يسمح مطلقًا بأن تراه زوجته . تزداد غفة (عبده) ناحيته ويتفاعل حنقه ويسأم منطقه من بطء جفوة (سيد) فى الانسحاب ، فيزوره فى دكانه بلا موعد :

ـ « ها أنت تفعل مثلهم ، تتبرأ من صديق العمر يا ابن الناس الطيبين »

يحاول تهدئته حتى لا يصبح فُرجة لأهل البلدة لكنه يستمر :

ـ « كنت تفتح قلبك لى عندما لم يكن لديك ما تخسره ، الآن أصبحت شاه بندر التجار وزوج ربة الصون والعفاف ، يحق لك أن تطرد هذا الفأر القذر من دكانك قبل أن يلوث سمعتك »

يغلق الباب بعد أن يفشل فى إخراسه وهو يتابع فى سخرية :

ـ « لكن الفئران تعرف كيف تنتقل بسهولة من مكان إلى مكان ، أما القط السمين فعليه أن يموت بالتخمة فى بيت مخاوفه ، ولكنى أحسدك حقًا على طبق القشدة الذى وضعته على مائدتك مؤخرًا .. آه يا مائة ندامة على من أحب .. »

إلام يلمح هذا المخبول ؟ وقبل أن يرد بحرف يلقى (عبده المدنى) بآخر ورقة للتشفى فى جعبته :

ـ « قبل أن أرحل يا ربيب العز أحب أن أترك لك هذه المعلومة التى أراهن على أنها سوف تجعل لياليك أطول »

هل تتأكد الشكوك ؟

ـ « كل ما تنعم به من تجارة وبيت ومال نما من حرام يا سيد الناس ! »

يغوص قلبه فى عمق الأسى وهو يسمع أدلة إدانته من الشيطان الذى لوّث ماله بإرادته وبكامل رغبته ؛ افتتح « عبده » مع « إلياس » مكتبًا وهميًا للإنتاج الفنى كواجهة لأنشطة يندى لها جبين أحقر الخلق : كوكايين يصل من أوروبا عبر قبرص ، هيروين من سريلانكا عبر الشام ، حشيش عبر سيناء ، إنتاج ما يفوق الثلاثين شريطًا من الأفلام غير المسموح بها لـ (زينة عماش) و(ريتا عرمونى) وممثلة مصرية نصف معروفة وبعض الفنانات اليونانيات ، هذه الأشرطة يتم توزيعها بشكل جيد ومتزايد بعيدًا عن عيون الرقابة ، فكر فى ذلك (عبده) على سبيل الترفيه عن العمل الموبوء ثم فوجئ بأن هذه التجارة الداعرة تدر عليه أرباحًا تفوق ما تجلبه المخدرات ، يفتتح ملهاه الليلى الخاص ليبيع المتعة المحرمة الحية ، يقدم الخمور المغشوشة ويقتنص مدمنى (الصنف) تحت إغراء راقصاته المتهتكات .. كل هذا برأس مال (سيد الخضراوى) ! قديمًا لامو عم (سيد) عندما باع أرضه ليفتح دكانًا ، ماذا يقولون عنه الآن عندما يعلمون إنه قد باع هذا الدكان لترويج المخدر والمنكر واللحم الأبيض ؟!

ـ « لماذا جئت يا (مدنى) ؟ »

بدا وجهه عابسًا كالذئب وبدرت منه إشارة مفاجئة وهو يخرج شيئًا ما قاتم اللون من جيبه :

ـ « ثمة ذكرى غائبة ، يبدو أن وقت استرجاعها قد حان »

ها هو قادم من عالمه الإجرامى ليقوّض عمدان حياته أو ليبتزه أو أيًا كان نوع المضايقات التى يمكن أن يجلبها معه هذا الأفّاق .

ـ « كانت مغامرة دنسة ، غررت بى لأصبح أحد أطرافها »

يبتسم بركن شفتيه : « ما كان لى عليك من سلطان إلا أن دعوتك فاستجبت ، كما أنك لا تزال تحيا بفضل هذه الضربة المحظوظة ، وعلى أية حال ليس هذا ما جئت من أجله . ثمة مغامرة سابقة ! »

تتجلى الحيرة فى قسمات وجه (سيد الخضراوى) ويسأل فى ضيق : « عن أى شىء تتحدث ؟ »

يعود (عبده المدنى) بظهره إلى الوراء ويرسل بصره بعيدًا عبر النافذة المعتمة حيث طائر ثديى يحلق فى دائرة بين الغيم وبومة تنوح .

ـ « عن بيت (سليم الشادى) ! »

***

« بنت »

« (عبده) ولد ضائع وهذا يفسر حماقته ، ولكن أنت يا (سيد) كيف أمكنك أن تطاوعه » كذا أنبه عمه على فعلتهما التى تحديا بها كل نصائح أهل الأمر والنهى . كان ذلك هو عام النكسة فى أواخر الستينيات ، ورغم حدة العقاب اتفقا على تكرار المغامرة ، بالطبع بتشجيع من (عبده) الفلتان الذى لا يردعه حتى الذبح ! ثمة خفير يحتمى بظل جميزة ويلف سيجارة متعكزًا على بندقية صدئة وكان الجو حارًا فى (يونيو) ، ومن فوقه ومن ورائه كانت تتراءى أشباح لجبل (عتاقة) الجبار الذى كان عبارة عن كومة عملاقة فى مواجهة السماء المظلمة الغضوب وبعيدًا عنه كانت الأضواء القليلة التى أضيئت لتوها فى مصابيح القرية تخفق من خلال أجنحة الليل الذى بدأ ينفث الكسل فى النفوس . تمكنا من رؤية وجهه ووجنتيه العريضتين وجبهته العالية المتغضنة وعينيه الرماديتين الواسعتين وفمه الغامق كأنه فم ثعبان . كان بوسعهم أن يشاهدوا شفتيه وهما تتحركان وأن يسمعوا زجره لهما « ابعد يا ولد منك له ! » .

لكنهما يتحايلان عليه ويتسللان من خلف جميزته ويصبحان فى حيز البيت .

***

فى رهبة يتقدمان فوق الدرج المهدم القائم على مدخل البيت ، كلاهما فكر فى التراجع لكن تنفيذ ذلك كان مستحيلًا وكأنك ألقيت كوبًا زجاجيًا من يدك ثم فكرت فى لحظة أن تمسك به قبل أن يسقط مهشمًا على الأرض .

وقفا يتلفتان حولهما خلف (سلمان) الذى راح يدق الباب الذى زعم أن أهله يقطنون خلفه ، ابتلع (محمود) ريقًا مرًا وفكر أن يهمس لـ (على) أن الصبى يبدو صادقًا وها هو يتقدم بثقة إلى الدار ، وخطر له أن الفتى ربما يكون كاذبًا وقد يورّط ثلاثتهم فى حرج قاتل مع أصحاب البيت ، لكن الفكرة والخاطرة تبددتا على ضوء مشاهدة جذبت انتباهه : على ظهر جلباب الفتى الرمادى . تحت . فى منتصف العمود الفقرى ثمة ثقب محروق الأطراف ، قدّر أن يكون أثرًا لحرق طرف سيجارة مشتعل ، لكن الدائرة أوسع من أن تكون لمحيط لفافة تبغ . بعد ثانية من التردد بينما الفتى منهمك فى طرق الباب بقوة أكبر يمد (محمود) إصبعه ببطء يلمس الثقب . دخل إصبعه فى جسد الفتى حتى المنتصف ! وكان لحم ظهره باردًا كالثلج بل له تأثير الكهرباء ، شد (محمود) إصبعه بسرعة البرق من المفاجأة المخيفة فالتفت إليه (على) متسائلًا وانفتح باب البيت مرة واحدة .

***

لم تكن لدىّ فرصة كافية لأتأكد . رأيته لثانية ثم اختفى عن ناظرى . وعندما عدت إلى حجرتى فى ظهر قسم الشرطة أسرعت أقلّب صفحات ملف قضيتى ووجدت صورته . (نبيل الجندى) كما تبدّى لى واقفًا تحت تلفاز الرذيلة ثم اختفى فى الحال فلم يترك خلفه سوى المكان الخالى والعشب أسفل جدار المقهى الطينى وشاشة التلفاز الملونة حيث شاب مخنّث يغنى بلهجة سخيفة وسط رهط من الساقطات .

نفس الوجه الشاحب والقميص الأبيض المتسخ .

مسحت العرق عن جبينى وأدركت أن معدتى تتقلص من الجوع . فتحت الباب خارجًا لأتصرّف فى شىء أسد به رمقى عندما تذكرت شيئًا .

الطفلة الثالثة ، (علية رضوان) .. يجب أن أعثر على أهلها فورًا .

***

لا أعرف مم أحذرهم بالضبط ، لكن الدور على أحد والديها الآن ، وعمومًا فلم يكن هناك مجال للإقدام على هذه الخطوة لسببين : أولاهما هو أن أسرة (رضوان) قد رحلت عن البلدة صبيحة هذا اليوم . والثانى هو أن الضحية الرابعة فى مسلسل حديثى السن المجنى عليهم كانت فى الانتظار ! أقول فى الانتظار لأنها لم تكن مفقودة هذه المرة . بل مقتولة !

***

.. جو مكفهر يخيم على البلدة وبعد انتقال خبر ذبح سيدة عجوز لا حول ولا قوة لها تطيّر القوم وآثروا السلامة خلف الأبواب ، ساعدنا هذا فى شق طرقات بلا متطفلين اللهم إلا شابًا أو اثنين من المتسكّعين ورؤوس نائتة من شقوق الجدران المتهالكة تراقب موكبنا الرسمى الذى توقف عند ساحة لزراعة البطيخ بحدود القرية لا يعقبها سوى (الترانش) القديم ثم الخلاء الذى لا يحمل من معالم الوجود سوى بيت مهجور يشبه فيلًا كبيرة الحجم .

ـ « هنا ! »

تتبعت إشارة الشرطى المرافق لنا ورأيتها .

« أووووووووووووه »

أنثى ذئب جريحة تئن بحنجرة امرأة ! تظاهرت بأننى لم أسمع الصوت لأن حواسى قد انشغلت بالفتاة الميتة . تكوينها الجسمانى يدل على سن المراهقة إذ تبدأ الطفلة فى التحوّل إلى امرأة ، إحدى ساقيها كانت مثنية بطريقة مغرية لو كانت حية ، لكنها مثيرة للشفقة وهى ميتة ، انكسرت عظمة العضد فى ذراعها الأيسر فبدا وكأن لها مفصلًا إضافيًا فوق الكوع . هذا المشهد شنيع إذا تخيّلته .

الذى يجذب انتباهك هنا شيئان : شعرها الأسود الناعم الذى هو أطول من أن يكون لفتاة بمثل هذا العمر ـ العمر الذى قل عامًا أو اثنين عندما جلست القرفصاء عند رأسها وأزحت خصلة من الحرير الأسود لأرى وجهها الطفولى البرىء ـ ذلك الوجه مفتوح العينين ، فبدا مخيفًا رغم جماله ـ والشىء الثانى هو فستانها الأحمر المصنوع من نوع متين وثمين من القماش غير المعروف فى مكان كهذا . لا أثر لأصابع أو لحبال على الرقبة الملساء ولا نقطة دم واحدة، ربما ماتت بالسم . عندما يسعد الطبيب الشرعى تأتيه جثتان فى الليلة الواحدة !

المزارع الذى اكتشف الجثة لا يعرف من هى هذه الفتاة ، وهكذا عرفت أن أحدًا لن يعرف كذلك هويتها ولن أضيع الوقت فى السؤال . أغلقت جفنى الصبية بإصبعين من يمناى وأنا أدعو لها بالرحمة ثم لعنت مرتكب الجريمة فى سرى وقبل أن أبعد عينى عنها لمحت ندبة صغيرة على شكل هلال على جبهتها فيما بين العينين وزمجر الريح .

ـ « روووووووووه »

أنين امرأة جبّارة تتظاهر بأنها ذئب !

***

بعد سبعة أعوام من الآن عندما يلتحق (محمود سيد الخضراوى) بكلية الآداب سوف يتعلّق ذهنهُ كثيرًا برواية ديكنز (توقعات عظيمة) . فى صباه قرأ ترجمة ساذجة لها مقدمة للناشئين من قبل دار نشر حكومية فى طبعة رديئة تحت عنوان (الآمال الكبرى) لكنها لم تكن مؤثرة بالمرة ربما لأن المترجم كان حلمهُ الأول أن يكون بائع كفته ! تذكّر وقتها هذا البيت المسكون بالأسرار وساكنته العجوز مسز هاف .. هافر شام .. هافيشام ـ ماذا كان اسمها ؟ ويحلم بكتابة أول رواية مصرية لها نفس المذاق المُر القريب من الأجواء المخيفة التى يرتادها كل منا فى أوقات كثيرة ، لكنه عندما تمكّن من نشر قصته الأولى (بيت) تلقّاها الشباب كرواية خيالية للتسلية فى وقت الصيف ، ولم يهتم النقاد مُطلقًا بالكاتب الشاب (محمود الخضراوى) وكان أكثر هؤلاء النقاد حداثة لا يعتبر الرواية جيدة إلا إذا تحدثت عن ظلم السادة للكادحين فى القرية ، وكانت تصلح مسلسلًا تليفزيونيًا للسذّج ! ثم إنه سوف يحمل مخطوط روايته الثانية (فئران) إلى ناشر بدين فى تلك العمارة بميدان التحرير التى تحمل على مقدمتها لافتة عملاقة لشابة أغمضت عينيها فى استمتاع وهى تمتص قضيبا بُنيًا من الآيس كريم المُغلّف بالشيكولاته ؛ يرفضها الناشر فيعود

إلى بيته عازمًا على أن يتوقف عن الكتابة ، ثم يعود من جديد ، لكنه لا يتم روايته الثالثة (جنون) هذه المرة لأنه ـ بسبب القرحة والقلق المفرط والدواء ـ يموت بسرطان المعدة !

***

تأمل إصبعه الذى خرج من ظهر (سلمان) لحظة بتقزز وعجب قبل أن تزكم أنفه رائحة نتنة وفى جوف الدار المظلم تدعوهما المرأة العجوز للدخول .

ينظر إلى (على) فيجيبه هذا بصمت : الأفضل أن ندخل ، يبدو أنه لا خيار لدينا .

يدخلان خلف صديقهما الجديد الذى لا ينتمى إلى عالم الأحياء . وتغلق المرأة العجوز خلفهما الباب ، عندما تبدأ العيون فى تلمّس الموجودات بالداخل . يتسمّران أمامها بينما ركض (سلمان) فوق السلالم نحو ما يبدو أنه الطابق العلوى لهذه السراى . وتبقى أمامهما العجوز بثوبها نبيتى اللون وشالها الأبيض وشعرها الأشيب وعينيها الرماديتين وابتسامتها الطفولية والندبة على جبينها فى شكل هلال صغير بين العينين والهواء يطرق الباب المغلق .

***

هذه سوف تكون ليلة مقمرة !

لكن الضباب كثيف حيث يحومان حول البيت ، التجربة السابقة لـ (سيد) و(عبده) لم تكشف لهما عن أسرار لكنها على الأقل جعلت المكان مألوفًا .

مختبئان والأنوار مطفأة ومن حولهما أرض طينية تغوص فيها حوافر الخيل وأقدام الرجال وكذلك مياه ضحلة يصعب اجتيازها . الفناء لم يكن ممهدًا أو مرصوفًا وإنما كان عبارة عن فرشة من التراب والحصى وسوق النبات الجافة. وكان البيت عتيق الطراز ، قديمًا ، واجهته رمادية بلون الأسى ، رسمت عليه الأشجار العارية خطوطًا متعرجة من الظلال فصار المشهد ككل لوحة مضطربة مرسومة بالفحم بيد أحد مرضى الفصام .

على ضوء مجهول المصدر ـ ربما كان يشع من الجدران ذاتها ـ كانت إحدى النوافذ تبدو على غاية من النظافة والتنسيق ، زجاجها صافٍ وستائرها داكنة من قماش ثقيل أحمر غامق .

عندما يقتربان يلمحان الضوء البرتقالى المحدود يتحرك فى الداخل :

هذه الزيارة مثمرة !

هبّة ريح مسّت وجهيهما وحرّكت شعلة الضوء بداخل الحجرة التى لم يتبينا معالمها بوضوح ـ لكنهما يفعلان مع كل خطوة يقتربان بها ـ خشخشة الأغصان وأوراق الشجر ، فقدم تغرس فى بقعة موحلة ، ثم يتسند أحدهما على الآخر حتى يتوقفا لصق النافذة .

إذا كان مصدر ضوء الحجرة الخافت مصباحًا فهو معلّق على مسافة عالية؛ لأنه غير ظاهر فوق أى من الأرفف الخشبية فى الزوايا ، وإذا كانت شمعة فهى من النوع الغليظ لأن الضوء كان دسمًا رغم ضعفه وكأن جزءًا من الدهن المصنوعة منه الشمعة يتصاعد مع شعاعها ويعبق هواء الحجرة . مرّت الريح

فى هذه اللحظة بسرعة خارقة وكاد (عبده) ينقلب على ظهره عندما ظهر الرأس فجأة فى النافذة .

***

مسح (سيد) جبينه من عرق وهمى وهو ينقل بصره بين (عبده) الذى راح يتحسس شاربه الرفيع ببطء وبين قطعة القماش داكنة اللون فى كفه : هذا هو منديلها ! تمتم بصوت ظن أنه غير مسموع من شدة خفوته : « إنك لا تعنى ..؟ »

لكن (عبده) سمعه غائبًا فى ذكراه الخاصة ورد فى حسم :

- « بلى .. لقد عادت (رهف) »

***

« طبيـــب »

عندما دخلت عليه وجدته قد أمسك بمقبض مسدس عتيق الصنع بمنديله المكرمش ووضع فوهته على جانب رأسه يزمع الانتحار (هل يخشى المنتحر ظهور بصماته ؟) لكنه عندما رآنى أفتح الباب التفت إلىّ فى يأس وانتظر أن أقول شيئًا ، ولمّا لم أفعل سوى أن تسمّرت مكانى عاد يثبت فوهة مسدسه عند صدغه ويتثاءب مداعبًا الزناد :

ـ « يمكنك الدخول إذا لم تكن قد أصبت بالشلل ! »

دخلت وأغلقت الباب خلفى بناء على إشارة يده وهو ينهض من خلف مكتبه حيث استقر معوجًا يتابع فيلمًا بالأبيض والأسود ومد يده مصافحًا :

ـ « دكتور (ابن هانئ عبد النور) .. طبيب القرية الوحيد ، يبدو هذا مثل مأذون القرية ولص القرية ، لكنها الحقيقة ، أنا المعالج والصيدلى واستشارى تنظيم الأسرة والطبيب الجنائى الذى جئت للقائه ، كل ذلك بمرتب يعادل نصف ما تحصل عليه ممرضة فى المستشفى الأميرى ! »

صافحته فى شك قائلًا :

ـ « ولكـن هـذا ليس سببًا كافيًا للانتحـار ، ربمـا الحصـول على عمل إضافى .. »

قاطعنى ملوحًا بالسلاح العجوز :

ـ « هذا ؟ .. لقد توقّف عن العمل منذ ثمانية وأربعين سنة ! أنت بالطبع

www.riwaya.ga

تذكر دراسة الطب الشرعى ، عندما يكون الحل الوحيد لتفهم مدخل ومخرج رصاصة من الجمجمة هو إعادة تمثيل الحادث ، طبعًا لا داعى للتحمّس وحشو مسدسك برصاصات حقيقية ! لكننى كما ترى شيخ فانٍ توقفت عن الدراسة منذ كانوا يبنون السد العالى ! فقط كنت أتخيل مدى طرافة أن يطلق المرء الرصاص على نفسه »

بصراحة : صُدمت . هذا ليس الطبيب الذى كان فى خيالى . الذى أراه أمامى هو جثة خرجت من قبرها بعد دفع الكفالة اللازمة ! أصلع الرأس عدا بعض الشعيرات البيض فوق كل أذن ، لها نفس لون الشارب ، نظارته من الزجاج السميك الذى يجعلك ترى عينيه بالإضافة إلى انعكاسيهما فتكون المحصلة أربع قرنيات سود تحاصرك ، نحيل كأنبوبة قلم من الحبر الجاف قبدا فى المعطف الأبيض كأنه شبح ! أكثر الأشباح نحافة على الإطلاق .

عرّفته بنفسى وأنا أدور بعينى فى العيادة التى تحوّلت إلى مستعمرة خاصة به : « (بشرى عدنان) ، محقق من مديرية أمن السويس »

هز رأسه وهو يحرر منديله من المسدس ليمسح به وجهه وقال ببساطة :

- « أعرف .. وأعرف أيضًا ما جئت لأجله ، الجثتان فى الحجرة المجاورة . جثة المرأة العجوز وجثة الفتاة ، إنها ليست مشرحة بالمعنى المفهوم ، لكن بها ثلاجة مناسبة الحجم والتبريد اعتدت أن أحتفظ فيها بطعامى فى أوقات الصيف خشية أن يفسد سريعًا ، لا تأتى الجثث بمثل هذه الوفرة ، كما أننى انتهى منها وأرسل لهم ليدفنوها بأسرع ما يمكن .. تبدو ميتًا من الجوع . هل أعد لك شيئًا ؟ لدى هنا بطاط .. »

ـ « لا .. شكرًا ! »

بعد ما قاله عن الثلاجة التى يحتفظ فيها بالطعام جنبًا إلى جنب مع الجثث لا أجد شهيتى مفتوحة إلى هذا الحد ، أنت تعرف هذه الحالة التى تكون فيها معدتك تتقلص جوعًا لكن بلعومك منقبض يرفض فكرة ابتلاع لقمة واحدة ولو فعلها لتقيأ فورًا .

من جديد أصابتنى موجة من الشك فى هوية هذا الطبيب العجيب لدرجة أننى قد فكرت فى طلب بطاقته الشخصية ، لكن ثقته الهائلة بنفسه منعتنى ، لو كان نصابًا فإن لديه ردًا رادعًا .

راقبته وهو يمسح ذقنه وشفتيه من العرق واللعاب (وربما الدم !) وترددت لهجته فى رأسى وهو يقول :

« لا تأتى الجثث بمثل هذه الوفرة .. كما أننى أنتهى منها .. ! » وتبدى لى فى هذه اللحظة كآكل بشر محترف !

على سطح مكتبه تزاحمت أشياء وأشياء : دفتر من الورق الأبيض متوسط القطع مغلف بورق مقوى يحمل صورة ببغاء متعدد الألوان واسم مضاد حيوى بالإنجليزية ، أحد دفاتر الروشتات الطبية التى توزعها شركات الأدوية كدعاية مجانية ، قدح قهوة تحوم حوله ذبابة خضراء ، درج صغير من البلاستيك تراصت بداخله وبانتظام أمبولات عملاقة يبدو أنها مجهزة للحقن فى كفل فيل المسدس الذى كان ينوى أن ينسف به مُخه منذ دقائق والذى لا تراه إلا فى

عصمات الشرطة بأفلام (أنور وجدى) ؛ ماسورة رفيعة طويلة وساقية لست رماعات ومقبض سقط منه برغى . ثلاثة مراجع طبية قديمة بألوان مختلفة (بني/ أزرق/ أسود) وكلها مغبرة ، وقلم من الحبر الأسود يبرز من بين صفحات أحدها .

بالحجرة الواسعة نافذة وحيدة احتل نصفها المجموع الخضرى لشجرة ما وتركت النصف الآخر تبدو منه النجوم أحيانًا أو تمر من خلاله السحب أو الدخان . وهناك (بارافان) خلفه ما يبدو أنه سرير للكشف ، بجواره حوض صغير معلّق فوق حامل معدنى ذى ثلاثة أرجل . ودولاب خشبى الله أعلم بمحتواه ضم صيدلية مُصغّرة عبارة عن صندوق خشبى له نافذة من الزجاج تراصت خلفها علب الدواء وقوارير عفا عليها الزمن ، بشىء من الخيال يمكنك أن ترى هذا الطبيب الغريب فى اسمه وشكله وكلامه ليس إلا أحد هؤلاء العلماء المخابيل الذين يصممون اختراعًا شيطانيًا تحت الأرض بغرض أن يحكم العالم فى موعد أقصاه هذا الأسبوع وبالتأكيد فإن (الحجرة المجاورة) التى يتحدث عنها ما هى إلا معمله السرّى الذى يقوم فيه بتحضير العقار الخطير (كاف ١٨) أو (هـ ١٧) أو المنضدة المربوط عليها شقيق (فرانكنشتين) أو قاعدة لإطلاق صواريخ لاحتلال القمر .

حانت منى التفاتة إلى التلفاز المُعدم المغبش الصورة حيث (محسن سرحان) يترنّح فى حيرة صوب اليمين وصوب اليسار برويه الحريرى والمنديل العملاق الذى لفه حول عنقه وشعره يستطيل ويتساقط على جانبى وجهه ،

يضحك فى جنون فتظهر أسنانه ناصعة البياض بين شفتين سوداوين ارتسمتا فى حلقة بيضاوية ، عندما تفاجئه أمه الشمطاء وهو ينتحر .

تابعته وهو ينهض ، محنى الظهر كأحدب نوتردام فى معطف أبيض زاده طولا رغم تقدّم عمره وأضفى حرفية على الموقف كما أضاف لمسة مرعبة، لكنه نشيط الحركة . عرض أن يصنع لى قدحًا من القهوة معه فلم أمانع ، أعرف أنه سوف يصنعها بالفورمالين ويحشوها بالستريكنين ، لن أشربها لكننى أمنح نفسى فرصة دراسة الموقف والمكان . وخطر لى أن أستعيد فى ذاكرتى كل تلك القصص التى قرأناها وسمعناها عن الهاربين من مستشفيات الأمراض العقلية ليفاجئوك بحديث شيق جالسين فوق مقعد الطبيب الفلانى ، وتوقعت فى أية لحظة أن يخرج طبيب الوحدة الأصلى من الحجرة المجاورة ليربت على هذا الطبيب المزعوم ويصطحبه بلطف بعيدًا عنّى وهو يعتذر لى كمن ترك كلبه بدون سلسلة : « عفوًا . لم أحكم إغلاق الباب خلفه . اعذرنى ! » طبعًا إذا كنت محظوظًا وجاء هذا قبل أن يغرز المجنون فى عنقى محقنًا مملوءًا بالكحول أو ينتزع أذنى بأسنانه .

لمحت الباب ـ الذى هو ولاشك باب (الحجرة المجاورة) لأنه لا توجد أبواب أخرى سواه حول مقبضه أثرًا لاتساخ يدل على دخوله لهذه الحجرة مرارًا وتحت عقبه تسرّب سائل يميل إلى الاصفرار ، متى رأيت هذا المشهد من قبل؟ لا أذكر .

الريح تقهقه من بعيد ، تدق بجذوع الأشجار على طبلة هائلة من الصفيح

أكره عندما يشتد تيار الهواء رغم سخونة الجو وفكرة أننى الآن فى هذه الحجرة الضيقة الآمنة فى حيز مسكون من القرية بعيدًا عن الهجران المحيط بها لأميال عديدة تجعلنى أرتجف رغمًا عنى وأرى بخيالى شخصًا بائسًا تلقى به الظروف ـ ربما هو مسافر ـ ليسير وحيدًا خارج حدود العمران فى الوادى البارد الظلال .

ـ « عفوًا يا دكتور ، ولكن وقتى ضيق ؛ فلئن أطلعتنى على ما لديك من تقارير أكون لك شاكرًا . »

مرت دقيقة بلا رد فنهضت من مكانى وتقدمت قليلًا إلى حيث ذهب و .. لا شىء ! لماذا توقعت مصيبة ما ؟ لقد كان واقفًا هنالك بقامته المحنية يصب القهوة فى فنجان صغير ويغلق الموقد بيده الثانية .

ـ « اشرب قهوتك أولًا ، لا أعتقد أن الجثث تتقلقل فى موضعها »

زفرت محنقًا ربما بسبب ألم خفيف فى معدتى :

ـ « أرجوك »

مط شفتيه واصطحب فنجان القهوة معه وهو يشير إلىّ أن أتبعه إلى الحجرة المجاورة هازًا كتفيه على طريقة (كما ـ تحب) .

تخيلت مفعول هذه القهوة القوية على جدران معدتى الخاوية من السابعة صباحًا إذ كانت رائحتها وحدها قد زادت من التقلصات التى أشعر بها على جدار بطنى الأمامى .

وتبعت الطبيب العجوز متأملًا شعيراته الفضية تنثنى عند قفاه وتداعب

معطفه الأبيض الذى اتسخ عند بعض المواضع ؛ نقطة بنية ـ ربما من مرة كان يصب فيها بُنًا لنفسه كالمعتاد ، لابد أن هذا الوحش العتيق لم يعد يهاب القرحة ـ بصمات لأصابع سوداء لعلها من آثار دخان الموقد الذى لا يعمل جيدًا فأتلف براد الشاى وكنكة القهوة وأحالهما إلى سواد فى سواد ، وأخيرًا خطوط بنيه محمرة ..

(هل هى دماء ؟ بالتأكيد .)

.. طبيب غريب الأطوار ، وحيد فى قرية ملعونة يعمل طيلة اليوم على جثتين . فما هو العجيب فى أن يتلوث معطفه بالدم ؟ المفروض أن تكون مستعدًا لرؤية المصارين الممزقة والعيون المقلوعة عندما تدخل معى الحجرة المجاورة !

***

منذ ركض (سلمان) فوق الدرج صاعدًا إلى الدور العلوى لم يهبط من جديد ، بينما توكأت العمة العجوز على عصاها وهى تضع يدها الباردة فوق كتف (على) إذ أشرق جبينها المغضن وأفتر ثغرها المحاط بالتجاعيد عن ابتسامة ترحيب مرعبة :

ـ « ما لكما مسفران هكذا ؟ أنتما فى بيتكما ! »

بل إننا نريد أن نغادر ...

نريد أن نرحل ...

نرحل ....

أرجوك !

نريد أن نرحل ..!

النظرات الواصلة بين عينى (على) و(محمود) تستجدى الشجاعة لاتخاذ أى قرار للفرار ، لكن العجوز سدّت الباب المُغلق بظهرها وبدا من لهجتها أن الإقدام على خطوة حمقاء سوف يكون ثمنه غاليًا !

ثوبها غامق اللون .. أسود ، بل كان أسود ثم زادته الأعوام الطويلة سوادًا، عن عمرها لا تسل ، أعرف أنه كبير بما فيه الكفاية ، بل وأكثر من الكفاية كذلك، إنها أكبر من الحياة نفسها ، عيناها فقدتا الإبصار ، لكنهما تلمعان ، رماديتان كالفضة لكنهما تبرقان بحدة .

أغلقت الباب بإحكام بواسطة عجيزتها النحيلة ، خطوات مكدودة تقترب ، هل يحتمى صاحبها بالظل ؟ ـ من هو صاحبها ؟ ـ ثم لا يأتى صاحب الخطوات فيواصلان تفحُّص المرأة والبيت .. فى عينيها المفزعتين نظرة ترحيب غير مدعاة ، والندبة الهلالية تبدو للحظة عادية جدًا وطبيعية جدًا وفى لحظة ثانية تبدو غريبة ، مرعبة ، غير منطقية ، ما الذى يمكن أن يجرح سيدة تعيش فى قصر كهذا ؟ كان البيت عميقًا ومن حجر .

من الخارج تبدو سراى مهجورة ، لكنه هنا يبدو أصلًا للرغد الغابر ، كانت الشمس قد غابت لكن حجرة نائية لا يزال يغمرها ضوء ساطع ـ ضوء نهار ساطع ـ فكيف هذا ؟

أما هندسة القصر وأثاثه فقد كان من الجلى أن الغرض منها هو قطع أنفاس الداخل وخلب لُبه وسرقة بصره عن كل شىء ، ولم يلقَ أيهما بالًا إلى ما يسمى

فى فن الديكور بالتناسق ولا بالترتيب ، كانت عيناهما رغم خوفهما تجول من ركن إلى ركن دون أن تحط على واحد منها : لا تلك اللوحات التى أبدعها الفنانون الأوروبيون بألوان شديدة الدسامة ، ولا تلك التماثيل الرخامية التى تفنن فيها أشهر النحاتين وانتشرت فى زوايا مختلفة ، ولا الثريا العلاقة التى تدلّت من سماء البهو ، كانت الأرائك تنعس تحت الجدران العالية والستائر الفاخرة تتدلى فى كل مكان ، والقاعة تموج بذبذبات ضوئية هادئة خفيضة ، لا تتبين العين مصدرها ، وكانت آذانهما تلتقط حركات منفصلة ـ خطوات .. ارتطام .. صفعة .. خطوات وحركات أوراق ـ وحواسهما تضطرم من تأثيرات بصرية وعطرية وصوتية متمازجة متصارعة ، تنبعث من مصادر مجهولة تنطلق منها ظلال وألوان داكنة وروائح مكتومة وهمسات ، وتدفقت خطوط من الضوء من الحجرة المنعزلة على قطع الكريستال بالثريا الجبارة وانعكست على السقف المقبب فى ألوان من الياقوت والمرمر ، وفى كل مكان رأيا آلاف الظلال ترتسم على الأثاث والجدران وتختبئ وراء الستائر وتزحف تحت الأرائك ، ممتزجة امتزاجًا طبيعيًا جميلًا ومُرعبًا بشظايا الضوء المنبعث من زجاج الثريا والنوافذ المتناثرة وتستقر آخر الأمر على بساط ثمين من قماش ثخين فى لون الذهب والقرنفل .

وضحكت صاحبة البيت ، ضحكت واهتز رأسها المكلل بالشعر الأشيب الممزوج بلون البنفسج وهى تلوّح لهما بالجلوس حيث تدخل معهما مشيرة إلى أريكة تركية .

ـ « إنني أرى دهشتكما لما تريان في بيتي ، مكان جميل وغني بالمباهج ؛ هكذا تقولان في السر ، ولكن ثمة أماكن أخرى أجمل منه بكثير »

وغابت عيناها في لحظة حنين

ـ « لكنكما لا تعرفان ، كل ما في الأمر هو أنكما سجينان لتلك القرية الصغيرة وأهلها التافهين ، انظرا حولكما وتذكرا المكان الذي جئتما منه ؛ فقراء بائسون القذارة وجهلة بالعشرات بل علمهم هو الألفاظ الجديدة في عالم الشباب ، صبية بائسون وفتيات صغيرات تُباع في السوق للشحاذين » ـ ثم ضحكت ضحكة غريبة ، ضحكة عجوز هازئة في مرارة ـ « كل ذلك البؤس وبينهم هذا البيت الجميل منذ أعوام وأعوام ، يخشون دخوله لأنهم حمقى ، لأنهم يعشقون الجُبن والزيف والعادة ، الجهل والفقر والمرض »

لا إراديًا وضع (محمود) يده في جيبه وقال بلا وعي : « ربما .. ربما ظنوه بيتًا مسكونًا بالأشباح ! »

التفت إليه (علي) بحركة حادة أن (اخرس ـ أيها ـ المعتوه ـ دعنا ـ نخرج ـ من ـ هنا ـ بسلام !) ، لكن المرأة نظرت في وجهه بإمعان لحظة ثم انتبهت فتحشرج الصوت الخارج من صدرها بصعوبة :

ـ « ومن قال إنه ليس هكذا يا ابن الغالي ؟! »

* * *

إذا رأيت شبحًا فسوف تسقط مصدومًا . فلماذا تسقط مصدومًا كذلك إذا رأيت أجمل بنت فى حياتك ؟ كاد (عبده) يسقط مغشيًا عليه عندما رآها . وبالكاد حاول (سيد) أن يتماسك .

برز لهما وجهها فجأة فى النافذة تحت الضوء المصفر وهما يقتربان فى حذر . كانت أجمل من الملائكة ، جمالًا طاهرًا عذريًا لا خلاف عليه . لم يكن ثمة ما يخفى حرارة الجمال الذى بقدرته ارتسمت ملامحه إلا الدفء الزيتى المشع من بشرتها شديدة النعومة لدرجة أنك دون حتى أن تدقق فيها النظر سوف تجد عينيك تدمعان من فرط الوهج .

أشرقت عيناها السوداوان الواسعتان لرؤيتهما وتنهدت كما لو كانت تنتظرهما ، كأن عبئًا ثقيلًا قد انزاح عن صدرها ، وانتفضت وابتسمت . برقت أسنانها ناصعة البياض فى الضوء الخافت واهتزت خصلتان كالحرير الأسود فوق جبينها فانتبها إلى شعرها الطويل الذى ينزل إلى الخصر .

لم يريا من قبل لونًا أحمر بمثل لون فستانها البديع المتناسق المفصل على جسدها الرشيق . مصنوع من قماش عجيب ، ناعم ودافئ ـ لم يلمساه . لكن هكذا شعرت عيونهما به ـ وسميك ورقيق . عند العنق تطريز من شريط حريرى أبيض ملىء بالثقوب الدقيقة ، ذات الشريط عند الكُمّين وتوقعا أن يكون هناك واحد آخر عند ذيل الفستان ، فيرسال النظر احترامًا وهيامًا على القد النبيل المثير من أعلاه لأسفله وجداه .

وجهها بيضاوى أبيض بض ، وافر الخدين ، شفتاها لهما حمرة طبيعية كما عند الوجنتين . بعينيها كُحل خلقت به وإلا فمن وضعته لهما بارعة بالفعل . شعرها مفروق فى الوسط ، يلمع بالزيت ويسقط بانسيابية على جانبى وجهها الساحر ويتدلى فوق كتفيها وأمام صدرها .

حتى الارتباك والحرج ذابا فى المفاجأة الحسناء ، والحرص والوجل ضاعا على مرأى الوجه الجميل الذى ابتسم داعيًا فتحول الحذر إلى حمق وتحول الحمق إلى جرأة وتحولت الجرأة إلى جنون وتحول الجنون إلى إيمان بأنه أيًا كانت عاقبة ما هما مقدمان عليه فلا تراجع ، فإن كان العذاب الشيطانى عقابا أهلًا به ، وإن كان القتل الشنيع عاقبة فليكن .

* * *

« أشباح »

مر (سيد الخضراوى) بأصابع تهتز بين شعيرات رأسه التى تناثرت بينها بعض الخطوط البيضاء القصيرة . كان فى صميم أعماقه يرتجف ويتهار عصبًا بعد عصب . قبل اليوم كان يتميز بقوة شديدة ووجاهة مصدرها التجارة الرائجة والنسب المُشرّف وخبرة أعوام . أما الآن فقد ارتد صبيًا فى ثوب رجل، بالأمس البعيد كان يخشى (الشىء) الحقيقى . الآن يرتعد من مجرد ذكرى هذا الشىء . أم هى أكثر من ذكرى ؟

ـ « قلت : (رهف) ؟ »

أبعد (عبده) عينيه عن النافذة وتفرّس فى وجه صديق صباه وبسخرية توارت خلف قلق مماثل قال :

ـ « لقد سمعتنى . وأنت تعرف جيدًا أننى لا أمزح » .

ابتلع لعابًا كالحنظل تكوّم فى فكّه السفلى ودارت رأسه لحظات باللا منطقية المخيفة لتعاقب الأحداث السريع : صديق الماضى يعود وفى جعبته حركات مختلطة من ألاعيب زمان ، سخريته وحيويته وركوده ، ونجاحه الآلم الذى نشأ من سلسلة من كفاح فاسد ، ثم يتكشّف الغرض الحقيقى من الزيارة فى هيئة حكاية ماتت . وعرف أن الأمر لا يقتصر فقط على هذا .

ـ « و .. وما الذى تريده ؟ »

فى لحظة مجنونة ومناسبة لهذا الوضع اعتقد أنه صادق فى إخلاصه وهو يجيب :

ـ « لا شىء يا (سيد) . عدت إلى القرية مضطرًا لتسوية عمل ما . تعرف أنه لا اجتماعيات لدىّ . لكنى توقفت على أثر بعض المشاهدات التى لا يمكن أن يفهمها إلا أنا وأنت وربما لا تهم أحد سوانا كذلك ، لا داعى بالطبع للثرثرة فى تفصيلات لأن الوقت يمر . فقط عرفت أنها قد عادت »

ـ « وهذا هو ما عنيته بالضبط : ما الذى تريده (هى) ؟! »

ضحك ضحكة قصيرة أغمضت عيناه ثم قال :

ـ « ما الذى تريده ؟! وكأنك لا تعرف ! الانتقام طبعًا ! »

* * *

ما فعلاه كان خطأ ، لكن بعض الأخطاء ـ على الأقل فى وقتها ـ تكون هى عين الصواب . كان خطأ أن يراقب (عبده) خادمة بيت الحاج (عبد الحق) وهى تشعل الفرن من فوق أحد الأسطح ، وكان خطأ أن يتبادل (سيد) نظرة طويلة مع ابنة أحد جيرانهم والتى لم يسأل عن اسمها قط . أما هذا فليس خطأ ، عرفا وقتها أن الخطأ هو ما يدلّك عليه ضميرك أو تدفعك نحوه حماقتك . لكنهما لم يشعرا بأى شىء من أى نوع ، سُلبت إرادتهما تمامًا كمن يكتشف نفسه عاريًا فى سوق بقدرة خفية ، والسؤال عن الخطأ والصواب أصبح متروكًا لشخص آخر فى مكان آخر .

يتسللان إلى حجرتها حمراء الستائر كفستانها ، حتى عيناها تلمعان بنقطة حمراء فى كل منهما كجمرتين من فرط الإثارة وكذا ابتسامتها العريضة للضح نشوتها وشفتيها الممتلئتين تتصببان همهمة الفرح .

أغلقت النافذة فى وجه الريح المشاكسة التى كانت تؤجج حماسهما فى التقاء هذه المفاجأة الجميلة التى لم تخطر لهما على بال .

هنا يخرسان . ينصتان إلى اعتراف وردى على وجنتين يضجر الورد من محاولات التشبّه بهما . هنا ينطحان كل ما كان لديهما بالماضى تحت نور الاكتشاف المثير ويستحيل لا شىء .

* * *

ـ « لكنها هى من دعتنا للدخول . وكلانا يعرف أنه لم تكن لدى أى منا القدرة على الاعتراض »

وفى الركن المعتم الذى ارتمى فيه داهمه الشعور الأول عندما طالعهما وجهها وتجذّر يقين بداخله : للجمال سطوة تذوب تحتها كل القوانين العاتية وحتى ملكوت الديناصورات !

ـ « تبحث عن براءتك تحت ظلال الحجج الواهية . من قال إننا أخطأنا بالتعرف عليها ؟ إننا ندفع ثمن أننا كنا غارقين فى الجبن ولم نستمر ! »

(عبده) وغد ، لكنه بالصدق نطق

* * *

لسان حالها ينطق بأنها صبية وحيدة رغم الترف ، وكانت بحاجة إلى أصحاب كحاجة الخبز إلى النار . لم يدهشهما أن يكونا أول بشريين تقع عليهما عيناها، على الأقل أول اثنين من الجنس الآخر . كانت وحدها فى هذا العالم وبحاجة كل الأطفال ـ أولادًا أو بنات ـ إلى اللعب . ذكرت لهما مقاطع من حياتها القصيرة التى تماثل حياة كل منهما عمرًا ، قصّت حكايتها مع أبيها الذى لم تره أبدًا لكنها تخيلت مرارًا كيف يكون . قالت أشياء عن المرأة الكبيرة التى تولت تربيتها ولم تعرف هل هى أمها أم أختها أم خادمتها أم مربيتها . كانت تتحدث عن أشياء وأشخاص ومواقف ، لكن كل ما كانت تحكيه كان يمر كالسحب المسرعة ثم يغمرها شعاع سحرها ورقتها ومرحها ورشاقتها فى اللعب ..

* * *

.. يلتقى ثلاثتهم فى حجرتها وأبعد مكان يصلون إليه هو ذلك الجزء من الحديقة تحت نافذتها التى يتسللان منها فى كل مرة للدخول أو الخروج فالباب لا يفتح أبدًا لا ليخرج منه أحد أهل البيت ولا ليدخله ضيف بل إن أيًا منهما لم ير سواها هنا .

تنقطع أنفاسهما من محاولة إبهارها بالركض خلف بعضهما أو بالشقلبة ـ كان هذا تخصص (عبده) ـ أو تسلّق الشجرة أو بالسخرية اللاذعة على أحدهما الآخر .

وكانت تضحك . دائمًا تضحك . منهما أو عليهما ، لا يهم ، المهم هو أن ضحكتها كانت تملأ الفضاء وتجعل للسماء لونًا ورديًا ولطين الحديقة ملمس

المخمل وللأعضاء الداخلية انتعاشًا سحريًا فيتحول القلب والكبد والحلق إلى قطع من الثلج تتجمد داخلها غصة الغيرة وبهر الإعجاب .

تُهدى (عبده) منديلها الأحمر الصغير فيثمل بالفرح ، وتسمح لـ (سيد) بلمس الندبة الهلالية بين عينيها ، يجدها باردة فلا تخبره متى جُرحت .

قليل من السعادة منثور على وجه الصبح ، لا ضير أن يسترسل المساء ، حتى الوقت لا ينتبهان إليه . لا ضير فى قليل من الحماقة . بل قل : لا ضير فى قليل من الجنون .

وكل شىء يسافر مع غيوم النوم . يسقطان من الإعياء ويكون هو الإدراك الأول بأنهما ينتميان إلى جنس البشر ، لكنهما فى نهاية اليوم يغادران على وعد بغد آخر حافل بالمسرات .

يضربون كفًا بكف عندما يجدون (عبده) المتشرد يزداد أدبًا ويصبح مهتمًا بنظافته ، بل ـ صدق أو لا تصدق ـ يبدى رغبة حقيقية فى الانتظام بالمدرسة . يهزّون الرؤوس ويقولون : « سبحان الهادى » ولا يعرف مخلوق أى إصبع ساحر مسّه .

أما (سيد) فينام فى فراشه مفتوح العينين ، فالنهار أولى و(رهف) طفلته فى المهد تضحك فتسعد كل الأرواح الصغيرة النابتة واحدة واحدة تحت غيدان الزهر . أى قساوة تلك فى النشوة ! إنها توجع القلب وتتعب الأنفاس وترهق الصدر وتؤلم السر الربّانى الراقد فى سلام بمنطقة الحلق فتخرس اللسان إلا عن

الكلام المهذب وتسد النفس إلا عن القليل من الطعام ، بالروح شبع وبالجوانح نهمة لألف نهار ونهار .

يمتطى النور آخر أحصنته وتثبت النجوم ومن أماكن بعيدة تأتيهم أصواتًا صاخبة للقطار وأغانٍ وآذان .

يعودان إلى حيث جاءا وتودعهما هى بابتسامة تشحنهما بطاقة كالنار . حتى الأمس يضيع مع انتظار لقاء الغد .

* * *

حتى جاء نهار آخر تسللا من أهليهما ومن مدرستهما ومن حياتيهما وذهبا إلى روضة الحلم المستديم . لكنها ليست كعادتها ، انطفأت الجمرة فى عينيها وقلت حيويتها شيئًا ، يقلقان ، ربما ليس عليها وإنما على نذير شاحب يتهدد وقت اللهو الذى اعتادا عليه . لم تكن مريضة بل هو مغص محدود أسفل بطنها جعلها تشبك ذراعيها فى حجرها وتنثنى وشعرها يسقط من الناحيتين .

-« إليك عنى ! » كذا صرخت فى وجه أحدهما بعنف وهى تبتعد بكتفها التى حاول أن يلمسها « أنتما لا تفهمان أى شىء .» وتعود النقطة الحمراء فى عينيها إلى الاشتعال : بغضب هذه المرة .

* * *

-« كلانا فهم أن بها شيئًا على غير ما يرام ، شىء غير طبيعى ولم يكن لنا ذنب فيما تشعر به من ألم .»

ـ « حقًا ؟!»

ـ « ماذا تعنى ؟ »

ـ « ما أعنيه لا قيمة له الآن ، ولكن قبل أن تبحث عن البراءة تذكر أننا ـ أنا وأنت ـ ما تمنينا أن يخف وجعها سريعًا إلا لنواصل ألعابنا معها ، حتى طابع الغرابة الذى كانت تتسم به لم يمنعنا »

ـ « ولكننا .. ولكننا حاولنا التسرية عنها . أنت تذكر هذا جيدًا ، بل لقد كان هو أنت من أقنعها بالخروج من الحديقة إلى الحوش خلف الدار »

ضحك ضحكة مُرّة بشعة وهو يقول :

ـ « حمدًا لله أنك لم تعمل محاميًا . اخترت أكثر أخطائنا فداحة لتخرجنا من هذه الورطة . كانت (رهف) مثل عود ثقاب جامد لكنه قابل للكسر بسهولة ، وأسوأ ما فى الأمر هو أنه لا يخرج من علبته إلا ليشتعل ! »

* * *

عندما تجاوزت معهما سور البيت كانت ما تزال تضع كفًا على بطنها ، ربما خف ألمها قليلًا أو هى الرغبة فى إرضائهما رغم الألم أو هى رهبة القرار التى حركت فيها شيئًا من نشاطها القديم الذى سُرّ بعودته أكثر مما شعرا بالشفقة لما تحسه من وجع .

كم لعبوا فى حديقة بيتها فى وضح النهار . ولكن لماذا يبدو تأثير ضوء الشمس عليها مختلفًا هذه المرة خارج الأسوار التى عاوناها على تسلقها ؟

لله جعلت من قمة شعرها بقعة حمراء داكنة ظاهرة فوق خصلاتها فاحمة السواد. تبادلا النظرات بينما كانت هى منشغلة فى قبض ثنيات من لحم بطنها لتخفيف المغص الذى صار حادًا فتجعّد فستانها الأحمر الجميل عند خصرها. ولاحظا أن بشرة وجهها المصفرة من الإعياء تكتسب احمرارًا مفاجئًا فقدّرا أن جلدها حساس لأشعة الشمس أو شىء من هذا القبيل. بيدها التى لا تمسك بها بطنها حاولت أن تمسك بطوق فستانها وكأن كلفته البيضاء تضيق حول عنقها وبدأت فى التنفس بصعوبة وانفتح فمها عن آخره لتعب الهواء وجسدها يتشنج أكثر وأكثر حتى سقطت على ركبتيها فى الوحل فانسحب الفستان بديع التطريز والاحمرار. جحظت عيناها واستحال معظم شعرها إلى لون أحمر كالدم وانتشرت البقعة الداكنة على وجهها كله تقريبًا فتغيرت سحنتها تمامًا، حتى حاجبيها استحالا إلى خطّين صغيرين شيطانيين يقتربان من بعضهما، بينما تسمّرا فى مكانيهما يتأملان ودقات قلبيهما صارت مسموعة فى أذانهما. هذه التحوّلات التى انتهت بخيوط رفيعة من دخان أبيض راح يتصاعد فى أماكن متفرقة من ياقة فستانها ومن فردتى حذائها حتى تقوست أخيرًا وهى تحيط عنقها بأصابعها بشدة وتركت بطنها وهى تلوّح بالكف الأخرى نحوهما فى استجداء.

* * *

«وقتها رحنا نبحث عن وسيلة للفرار، يسهل على من يتسلل إلى البيوت ليلاً أن يفر عندما تتأزم الأحوال...»

ـ « ... رحنا نجرى مبتعدين وكأن إبليس ذاته يطاردنا ... »

ـ « ... ولم يفكر ـ أو يجرؤ ـ أى منا أن يلقى نظرة خلفه ليرى البيت الذى يزداد ضآلة ونحن نركض مبتعدين عنه أو الطفلة التى أسعدتنا أيامًا ثم تركناها تتلوى من الألم راكعة فى الطين وهى تختنق ... »

ـ « .. لم تكن تختنق .. بل تحترق ! »

* * *

« مأساة »

الهيئات التى تخصصت فى رفع دعاوى ضد شركات التدخين عليها الاتصال بقاتل مأجور للتخلص من الدكتور (ابن هانئ) أولًا لأنه دليل حى على أن السجائر تطيل العمر !

حاملًا فنجان القهوة بيد ، أخرج من جيب معطفه علبة سجائر ، بحركات محترفة سريعة من أصابعه المعروقة العجوز فتح طاقتها وتناول مؤخرة إحدى اللفافات ووضعها بين شفتيه ثم أعادها إلى جيبه وعاد بأصابعه حاملًا قذاحة رفيعة شفافة الزجاج مملوءة بالغاز حتى نصفها ومص الأنفاس الأولى باستمتاع وبعض نلج حجرة الجثث الباردة بينما أشباح بيضاء وسوداء على شاشة التلفاز تعلن نهاية الفيلم حيث تتم تبرئة (مريم فخر الدين) ويحترق (محسن سرحان) فى سقر بفضل حيلة ذكية من الطبيب المعالج لغيبوبة الأم .

دخل قبلى ووضع الفنجان على طاولة مستطيلة مغطاة بملاءة بيضاء ترتفع وتنخفض متشكلة فى هيئة جسد إنسانى يرقد تحتها ، هل تذكرون ذلك الفصل فى مسرحية (ريا وسكينة) حيث الجثة الطازجة الملفوفة بالملاءة النظيفة التى كان يجب على (حسب الله) التخلص منها بلا مناقشة ؟

ثمة طاولة أخرى مماثلة ولكن الملاءة البيضاء عليها غطت جسدًا أقل طولًا وأكثر نحافة فقدرت أن هذه هى الفتاة الصغيرة المسكينة وشعرت بحنق لخالتى غطى على توجسى السابق .

وضع سيجارته إلى جوار فنجان القهوة فأرسلت خيطًا حلزونيًا من الدخان الرمادى فى الحجرة الكئيبة العارية مقشورة الطلاء . ومن فوق ثلاجة عريضة مصنوعة من الصاج المعدنى الفضى تناول ملفًا ورقيًا حكوميًا من الذى يصنعونه بأسوأ الخامات المستخرجة من تكرير القمامة . وثنى الغلاف قالبًا الصفحة الأولى يراجع ما لديه ثم أعادها مكانها قائلًا بلهجة محايدة ميتة :

ـ « السيدة المسكينة تلقّت عددًا من الطعنات السريعة المتتالية فى أماكن شديدة الحساسية ومؤلمة أيما إيلام لكنها لا تحمل أعضاءً حيوية ، مما يعنى أن قاتلها يجهل كيف يسدد طعنة مميتة واحدة أو أنه لم يرغب لها فى ميتة سريعة مريحة ، بل أرادها أن تنزف حتى الموت وتتألم حتى تتمنى الموت »

بلا وعى تناولت فنجان القهوة وحسوت منه رشفة قلبت معدتى .

ـ « ثمة طعنة فى الجانب الأيسر ، ماهرة جدًا ، فصلت الطحال عن حزمة الأوردة والشرايين التى تصله بخط الإمداد الدموى الرئيسى ، ليضمن كمية دم نازفة أكبر . طعنة أخرى عند العنق لم تقطع الشريان السباتى ولا الوريد الودجى لكنها ثقبت القصبة الهوائية ، ولعلها هى الطعنة الأولى ليضمن أن تكف العجوز عن الصراخ بينما يمثل بجسدها كما يروق له . »

وتناول لفافة التبغ ولاحظ فنجان البن الذى اختفى لكنه لم يعلّق ثم أغلق الملف :

ـ « ثمة تهتكات وكدمات فى مواضع متفرقة عند المعصمين والكاحلين والعنق ، ثمة مقاومة من الضحية واضحة . كذلك هناك تمزقات كادت تفصل

تنها عن رأسها و ... عمومًا كل شيء مدوّن تفصيلًا هنا . لكن ما أخبرتك به هو فحوى التقرير الأساسي . أشفق عليك من خطي . تعرف كيف يكتب الأطباء دائمة عندما يحاولون شرح ما درسوه باللاتينية بلغة عربية مفهومة لرجال الشرطة .

تحركت نحو الطاولة الأخرى ووضعت القدح في أقرب مكان ـ ليس بجوار الجثة ـ وسألته :

ـ « وماذا عن هذه الطفلة ؟ »

سعل وهو يقترب مني . شعرت بأن هذه الحجرة سوف تنعم بجثة ثالثة عما قريب ! وفكرت أنه يدخن هذا النوع الفظيع من التبغ للقضاء على أعصابه الفية حتى يتعامل مع الجثث العفنة بحرية تامة دون أن تضايقه رائحتها . لكن رائحة الدخان المتصاعد من سيجارته ألعن من أي رائحة أخرى وكأن الغرفة محشوة برسيمًا مجففًا !

أزاح طرف الملاءة كاشفًا رأس الفتاة وصدرها . شعرت بدهشة ثلاثية : شعرت بقدرة الله عندما رأيت وجه الفتاة الجميل . أكثر جمالًا حتى عن الذي رأيتها عليه أول مرة .. وعجبت أنه قد مر وقت مناسب لحدوث تغييرات ما على الجثة ولو حتى شحوبًا في الوجه . زرقة في الشفتين . اسودادًا تحت العينين وأفزعني أن دفعتني الندبة الهلالية بين عينيها إلى الاعتقاد بأن هذه الفتاة ليست جثة أكثر مني ومن الطبيب وإنما هي تتظاهر بذلك .. وأخيرًا لم أفهم لماذا أن الفتاة بكامل ثباتها بينما يجب أن يوقع عليها هذا المختص

تشريحًا جنائيًا مناسبًا .. ذات الفستان الأحمر بديع الصنع متين النسيج .

انظر إليه أنتظر تفسيرًا لكنه يطيل النظر إلى الوجه الجميل الغائب فى عالم الموتى ويضع كفه النحيلة المرتعشة على رأسها ويزيح خصلة من شعرها الأسود اللامع . ثم يبتلع ريقه ويتنهد ويغمغم واضعًا يده الأخرى فى جيب معطفه بعد أن تخلّص من سيجارته الكريهة :

ـ « هذه الفتاة ميتة »

نظرت إليها من جديد . ثم حككت ذقنى بأظفارى وعيناى تتحركان ببطء بحثًا عن رد لاذع :

ـ « عظيم جدًا ! وهل تعتقد يا سيدى أننى كنت فى حاجة إلى طبيب جنائى ليخبرنى أن هذه الفتاة ميتة ؟! »

يهز رأسه زافرًا :

ـ « كلا .. أنت لا تفهم .. »

ثم ينظر فى عينى مباشرة وهو يتابع :

ـ « هذه الفتاة ميتة .. ميتة منذ ثلاثين عامًا ؟ »

* * *

أعد لى فنجانًا جديدًا من السبانيد وفرك لنفسه لفافة تبغ حتى تبصق بعض محتوياتها من العشب البنى المجفف فيسهل اشتعاله ثم علق العبارة بالدخان المسيل للدموع واتخذ لنفسه مجلسًا

قال وهو ينزع قلمه الأسود من باطن المرجع الضخم ليبدأ فى خط أشكال

لا معنى لها على ورقة أمامه لزيادة التركيز على ما يود قوله :

ـ « كاتب روسى قديم قال إن أسباب السعادة واحدة أما التعاسة ، فلكل عائلة سبب مختلف ـ ربما على سبيل الابتكار ! لعله (تولستوى) أو (دستوفسكى) ، لا أذكر ، لم يقل هذا نصًا بالطبع ولكن هذا ما أراد أن يقوله فى رواية طويلة عن الخيانات الزوجية . كما أن القصة التى يمكن أن أحكيها لك طويلة . وبالرغم من ذلك يمكن تلخيصها فى عبارات موجزة كسبًا للوقت لأن سنّى لم تعد تسمح لى بالسهر خاصة وأن البن والدخان أصبحا بلا تأثير ، هى العادة لا أكثر ، وأنت تبدو منهكًا ، من جوع أو من تعب أو من قلة نوم أيضًا وأفترض أن آخر ما تود سماعه هو حكايات عجائز فى ليلة ربيعية عاصفة .. »

فى هذه اللحظة ردت علينا الريح بقعقعة مفاجئة ، ربما هى مستمرة لكننى لم أنتبه إليها إلا على ضوء كلماته ، تبعتها الزمجرة الناعمة (روووووووووه) لثانية فقدت جراءها .

ـ « .. ثمة عبارة شهيرة لدينا فى مصر وأكثر انتشارًا فى مجتمعاتها المغلقة تقول (إن البيوت أسرار) وهذا حقيقى نوعًا ما ، لا أحد يعرف ماذا يوجد وراء الباب المغلق ، وهذا البيت المسكون بالأسرار له بالطبع باب وخلفه لا يعرف أحد الكثير ، البيت أثرى بالمعنى الحرفى للكلمة ، المؤكد أنه هنا منذ أمجاد الدولة العثمانية وأى خبير آثار محترم سوف يؤكد لك أنه أقدم من ذلك ، لكنه اكتسب جاذبية خاصة فى كل العصور التى مرت عليه نظرًا لأن طراز بنائه جاء متميزًا عمّا كان متعارفًا عليه من الأبنية ذات النقش الإسلامى وفنها أو القبطى

قبل ذلك ، ولا الرومانى ولا الإغريقى ولا الفرعونى ولا حتى بيوت الأجانب التى تعج بها منطقتنا (النمسا) وبورتوفيق ووسط المدينة . يقولون إن من صمم بناؤه أرمنى الأصل وقد بناه كمستراح بتل القلزم لخليفة المسلمين ..»

« .. عمر هذه القرية صغير بالمقارنة بالبيت وسكانه الذين لم يبدُ لهم أثر إلا فى مناسبات نادرة . ربما لا يعى أحد أى شىء من هذا التاريخ سوى حفل زفاف أسطورى تم فى بداية العهد الفاروقى المتعجرف وحتى خرجت العروس فى أكفانها بعد ذلك بعشرين عامًا لا يعرف أحد أى دخائل فى هذا البيت ، فأهل الريف هنا أكثرهم ليسوا من أبناء السويس ، بل نازحون من الوجهين البحرى والقبلى وهؤلاء يعيشون مجتمعًا مترابطًا بشكل مثير للأعصاب ؛ فالأبواب كلها مفتوحة وأوانى طعامك مكشوفة وكل الأخبار تنتقل بسرعة البرق ولا سر هنالك . وقد اعتادوا على أن يظل المجتمع قبلى بقدر الإمكان لذا فقد اعتبروا البيت وسكانه نبتًا شيطانيًا ما دام أهله لا يظهرون وراح أكثرهم يخترعون عن سكانه الحكايات ، ونحن بلد الكلام الثمين ، بل إن أحد خُدّام هذا البيت لم يكن ليظهر فى الأسواق وبالطبع فإن قصرًا بهذا الارتفاع لابد له من عشرات الخدام ..»

« .. وبالطبع كان أكثر هذه الحكايات مريض . موصوم بالتلفيق المؤسف وكأى شائعة تحملك الذنوب فقد انتشرت الحكايات الخاطئة فى كل ركن بالقرية . للأفكار المريضة قدرة جبارة على الانتعاش هنا . مثال : ما حدث اليوم . دستة من النساء رحن يولولن ويلطمن ويضعن التراب فوق الرؤوس

ويمزقن الجيوب على العجوز الراحلة وكل هذا الهراء : أخبرني كم واحدة منهن بعث للفقيدة بالرحمة ؟ .. وهكذا فإن للأفكار السوداء أقدامًا أكثر ثباتًا ! .. قالوا إن البيت تسكنه الأشباح وقالوا إن أصحابه من المتعالين وإن كان في تعرالهم مبالغة وتساءل البعض لماذا يسكن هؤلاء قصرًا في هذا المكان القفير وتمنهم المدن الواسعة ؟ .. وبالطبع ما من إجابة .. »

نظرت إلى ساعتي شاعرًا بالملل والجوع والحنق .

« .. عندما استلمت عملي هنا منذ عشرات الأعوام سمعت أخبارًا متناثرة من البيت وأهله ، لكن طبيبًا يبدأ حياته في مكان ريفي آخر ما يهمه هو الثروة . ربما كان ما يقولونه صحيح : المعرفة تصيب الزاهد فيها ! .. في ليلة ما بينما كنت أستعد للنوم سعيدًا بعملي الجديد فخورًا به إذا بي أفاجأ بطرقات على باب حجرتي . فتحت حاملًا المصباح هزيل الضوء أنظر من الطارق ، فإذا بها امرأة نوبية تغطي النصف السفلي من وجهها بطرحتها . أخذت تتكلم بسرعة وبلهجة لم أفهم منها إلا كلمات قليلة مفادها أن ثمة خطب ما يستدعي وجودي . بدّلت ملابس النوم بسرعة وتناولت حقيبتي الطبية التي كوّمت فيها السماعة وجهاز الضغط وبعض الأدوية المسعفة كيفما اتفق وانطلقت خلفها .. »

« .. كانت ليلة خريفية باردة ، سحبها منخفضة ساكنة ، مضيت مع الخادمة النوبية في منطقة موحشة من القرية التي لم تعمر كلها بعد حتى وجدت نفسي آخر الأمر وقد استحكم الضباب حولنا وغلّف البيت الضخم فلم تبد منه

سوى أجزاء باهتة لبعض جدرانه ، كان الطريق إليه طويلًا رغم أنه على مرمى البصر ولست أعرف كيف ذلك ، ربما لأن كل ما كان حولنا هو اللا شيء وكان هذا البيت يتبدى عملاقًا كأنه كل شيء . إذا نظرت الآن من نافذة الحجرة المجاورة سوف ترى ظلاله البعيدة ، إذا خرجت من المسجد سوف يتبدى لك شبحه عند الأفق ، وربما في كل مكان تستطيع أن تلمح له أثرًا ، قد يكون هذا تأثيرًا نفسيًا يتفرد به أو ربما هي الخدعة التي يتقنها فنانو الإعلانات عندما يقدمون وجه فتاة حسناء تنظر إليك عيناها مهما كان الاتجاه الذي تراها منه . كررت النظر أمامي ، السراي هائلة الارتفاع والامتداد الأفقي والأسوار التي تحيط بها وحديقة الشجيرات السود خلفها وإلى الورود الداكنة المنتشرة في صفوف ، وإلى حجرة حجرية ملحقة ربما هي للبواب أو للبستاني ، نظرت إلى ذلك باعتلال في النفس واهتزاز في الروح لا يعدله إلا شعور المريض بالحمى حين يرفعون عن جبينه الملتهب قطعة القماش المبتلة بالماء البارد . وذلك الغموض الذي يكتنف مهمتي التي لا أعرف منها إلا بأن واجبًا يجب أن أتيه . أحسست في صدري جمودًا كجمود الحجر وبقلبي يغوص ويستسلم . ولم أتوقف لأفكر : هل ما أفعله قد يستوجب الندم ؟ أم أنه من الطبيعي أن يتم استدعائي لمعالجة مرض ما وقد يكون أمر ألتي غريب عن هنا بما لدي من علم هو ما منحني شرف دخول هذه القلعة المهيبة ؛ نعم ، الأمر كان مخيفًا لكنه كان مثيرًا كذلك . كنت شابًا حديث العهد بالحياة يسعده الاكتشاف ؟ »

« ..لم أفكر طويلًا ، فما يكمن خلف هذه الجدران لن أتمكن من كشفه ولن

عرف منه إلا المعمشى الذى سوف يأمرون لى بالسير فيه حتى حجرة المريض
وربما نلت أجرًا سخيًا فأعود إلى وحدتى وحجرتى وينتهى كل شىء . أما التأمل
فى طبيعة أهل البيت فكان سرًا عصيًا على الحل . بل لم أكن أقوى على أن
أتوسل فى تلك الأخيلة الحماسية التى تزاحمت فى عقلى وصوّرت لى أننى
ذلك النبيل الذى سوف يهتك السر ويعرف الحقيقة التى توارت أعوامًا وهو
يلقى بنفسه فى فم المجهول . ولم أجد مناصًا من أن أنتهى إلى رأى لا يشبع
القلق الذى استعر بداخلى . هو أنه يجب أن أكف تمامًا عن الارتياك وأحضر
نفسى لممارسة مهنتى كطبيب .. فقط .. ! »

« .. الذى فتح لنا الباب لا وجه له ! .. لم أره لأنه توارى خلفنا يغلق
الباب بعد دخولنا . وكان بهو البيت يحمل الدليل على اضطراب عصبى ، كل
شىء نظيف ، كل شىء فى مكانه ، كل شىء مرتّب ، كل شىء باهظ الثمن
ورغم أننى شعرت بعدم الاتزان إذ وجدت هذا غير منطقى وكأننى انتقلت
فجأة إلى صورة ثنائية الأبعاد مرسومة باليد ولا تمت للواقع الحى بشىء ..
انطلقت على الخادمة السوداء تحت نجفة عملاقة من الكريستال الفاخر ، درت
حول نفسى ودارت حولى اللوحات والرسوم التى لا يمكن أن تراها فى عشرة
متاحف مجتمعة فى أطر من الطراز التركى موشاة بالذهب فالنوافذ العريضة
الموصدة فالطنافس التى تشى بالبذخ فالباشا الذى انتصب أمامى كأنه خرج
من العصور .. »

« .. فلقد بقدرته الطبيعية على إلقاء الأوامر الصامتة إلى حجرة قريبة

كل شيء فيها مصنوع من الحرير أو هكذا خُيِّل إليّ ، خاصة ستائرها الحمراء المزركشة بأطراف سوداء تغلّف فراشًا قبع فى نهاية جوف الحجرة وعلى ضوء ألسنة شمعدان عالٍ كان يقوم على مقربة من رأس السرير ، أما المريضة .. »

« أما المريضة فكانت فتاة صغيرة قد أتمّت نُضج أنوثتها توًا ، رأسها وكتفاها يبرزان خلف الغطاء الحريرى الغامق الذى وضعوه فوقها . أما الذراعان والصدر وأطراف الشعر الأسود الجميل فقد غابت كلها تحت ذلك الغطاء الثقيل . كان حسنها نادرًا ولا مثيل له حتى إنك قد تضطرب إذا حاولت التفكير كيف يمكن أن تزداد جمالًا إذا تقدمت فى العمر عدة أعوام وصارت شابة ! .. مغمضة العينين ، وجهها يشع بالحرارة ، تخيلت أول الأمر أنه الضوء المحمر الذى تلقيه الشموع على الستائر وينعكس على وجهها ، لكننى وضعت ظهر كفى على خدها فتأكدت .. »

« .. فى هذا الوقت كانت أسباب الحمى كثيرة جدًا ولا حصر لها وعلاجها كان يخفض الحرارة وهو غير فعال لأن الأسباب ، مجهولة أو معلومة ، لم يكن دواؤها متاحًا .. »

« .. لم أكن ذلك المكتشف الذى يغزو البيت المتكتم على أسراره ويتسلل سعيدًا بما رآه ، بل لقد فزت بما هو أكثر ! .. تم تخصيص حجرة خاصة لى لن أحلم يومًا بالنوم فى واحدة لها ربع ما بها من سبل الراحة .. لكن أكثر وقتى كان بجوار فراش (رهف) »

ـ « إنك لا تقصد .. ؟ »

قاطعني بنفس اللهجة التي حملت مسحة من الحزن والحنين :

ـ « ..بلى ، هي نفس الفتاة التي ترقد في الحجرة المجاورة لنا الآن ! ودع تفسير هذا الخلط لشخص آخر سوانا إذا كنت تود أن تسمع بقية الحكاية ..»

ـ « حسن ..أكمل »

ـ « ..عرفت اسمها من شاب خجول يعاني من لعثمة في النطق أوصوه بإخفائه ، لكن يبدو أن كلامه معي لم يكن تحت مراقبتهم لأنه كان حذرًا جدًا خاصة مع ما لمسته من طابع التحفظ المبالغ فيه لهذا الدار . وكنت قد سمعت بصلافة الباشا الذي استقبلني عند مجيئي عندما طلبت توفير خدمة من إحدى نساء الدار أو فتياته للطفلة التي سوف يمتد رقادها لأيام فنهرني بحثًا أن هذا شأنهم . لم أدخل مع الرجل في جدال ، هذا قصره ويبدو أنه يحمل من السلطات ما يثير الهلع ..»

« ..وكنت أتسلى هناك بالقراءة في مجلد صغير وجدته بجوار فراش الفتاة لعريقة مطبوعًا بالإنجليزية القديمة عبارة عن رواية قديمة جدًا مكتوبة بخفة القرون الغابرة تتحدث عن علاقات عائلية مخزية ..أو كنت أتحدث إلى الشاب المتفحم الذي اكتشفت أنه أكبر سنًا مما ظننت في بادئ الأمر فقد لمحت لمعيرات بيضاء عند فوديه وإن كانت الخصلة الفاحمة التي تسقط على جبينه تمنحه مظهر الشباب العابث ، عرفت منه أن جذع شجرة أهل البيت صلب سيل عظيم الشرف على طول الزمن يمتد إلى (نعمان داغر) الذي يجزم بأنه كان سلطان . لكن كل فروع هذه الشجرة كانت تسقط عدا فرع عائلة

(الشادى) باشا التى ظلت تعيش فى هذا البيت الذى نشأت فيه ..»

« .. كان من طابع العائلة الانعزال الذى كان مبررًا بأنهم لا يتزوجون من أغراب . كل الزيجات تتم فى صلب العائلة فلم تكن ثمة حاجة إلى التعارف بالآخرين . وهذا التقليد تم توارثه من جذر (داغر) الأكبر الذى لم يكن ليسمح بتلويث دم العائلة بدم دخيل . ومن ثم كانت الأفرع تسقط حتى لم يبق منها إلا فرع (الشادى) باشا الذى نقل عن جده الكبير تقليد الإقامة فى ركن منعزل ومحاولة الإبقاء على البرعم الأخير فى شجرة العائلة المرموقة مواجهًا بالمأزق الخطير : أن العنقود النهائى الذى ينحدر عنه مثقل بالذكور من دون الإناث ! ..»

« .. الشاب الخجول الذى عرفت أن اسمه (سليم) كان ابن الباشا وكانت طريقته فى الكلام تثير اليأس . لأنه يتلعثم فى كل عبارة فلا أفهم جل حديثه وأحاول تفسير الباقى من عندى وما حكيته عن عائلته قصه علىّ فى ساعات طوال . مع الوقت بدأت ألاحظ . وهذا كان يجب أن ألاحظه فى البداية ـ الطبيب يجب أن يكون قوى الملاحظة وإلا هلك ـ أن بالشاب ضيقًا لا أفهمه، حركات وجهه مضطربة فخمنت بشىء من التأكد أن به مرض عصبى لم يكن العلم قد عرف اسمه وقتها . كانت طبيعة وجهه مميزة . تقاطيع غريبة بعض الشىء : عينان واسعتان . لمعانهما بلا شبيه . شفتان رفيعتان غامقتان . فى تقوسهما ذلة وإحساس مجهول المصدر بالندم . أنفه رفيع . وجهه يتمادى يمتد من جبين ضيق تتوسطه الخصلة اللامعة وينتهى بذقن دقيقة بارزة .

شعره خفيف وناعم كأجنحة الحشرات . هذه الملامح كلها مع وجنتين بارزتين جعلت من وجه الشاب شيئًا مخيفًا ! صارحته بملاحظة جديدة : ثمة شبه واضح بينه وبين الفتاة ! وتتعجب عندما تجد تفصيلات مماثلة تحيل المخيف ودًا ! سألته بعد تردد إن كانت شقيقته فتلعثم كعادته وأجابني بعد أن تأكد من أن الباب موصد بأنها ابنته »

« ..أدهشتني هذه المعلومة التي زادت في عمر الرجل مفزع الملامح . لكنني تغلبت على عجبي بسرعة لأن الطبيب يجب أن يحمل وجهًا كالقناع فلا يعبس ولا يبتهج وأهم شيء ألا يبدو عليه الاندهاش وإلا كان هذا دليلًا على أن في الدنيا ما لا يبدو إليه مألوفًا وهذا يخالف طبيعة الأطباء ، على الأقل التي يعرفها الناس من أنها شاملة المعارف ، محيطة بمختلف الطبائع والبيئات والمستجدات . ولم أعبأ بهذا كثيرًا في ظل اكتشاف مهني هام لاحظته بينما كانت الخادمة السودانية تفك ياقة فستان الفتاة الأحمر لتغسل لها عنقها ، عندما أوقفتها وتأملت رقبة الفتاة التي وجدتها مليئة بالتسلخات الحادة في شكل طوق حول عنقها وكأنه أثر لشنق بحبل خشن وبحذر أزحت ثوبها قليلًا لأسأل بمساعدة الخادمة فظهرت أمامي آثار احتراق لاشك فيها وآثار غيظي أنهم لم يطلعوني على أن الفتاة قد تعرضت لأي من هذا خاصة والدها الثرثار الذي صدعني بتاريخ عائلته غير الطبيعية ولم يحاول مرة أن يخطرني بأن ابنته قد تعرضت للنار ؟ .. أم أنه لا يعرف ؟؟ »

« .. تناولت إحدى الشمعات السبع واقتربت بها من صدر الفتاة فتأكدت

من خطورة الحرق الذى أصابها ، بعض الأجزاء المقشورة من جلدها تنز صديدًا أصفر بين حواف سوداء وخضراء داكنة ، على الأقل يمكننا الآن أن نعرف أن سبب الحمى هو التهاب من نوع ما . قمت بوضع معجون مرطب ومضاد للالتهاب والعدوى فى موضع الحروق . وقررت أن أواجه الباشا وابنه بما لدى وأن أعرف ماذا يخفيان أيضًا . هذا حقى وحق مريضتى . لكننى فى تلك الليلة التى لم أستطع فيها النوم ، لأن القلق المحيط بى صار أكثر مما يمكن احتماله وأصبح كل شىء هنا غير مريح ، سمعت صوت ارتطام بالخارج فأسرعت حافى القدمين أغادر حجرتى ووقفت فى الرواق المفروش بالبساط الطويل الكث . لست من محبى استراق السمع ولم يكن الفضول هو ما دفعنى إلى الاقتراب من الباب الذى تهمس خلفه الأصوات ، بل كانت غريزة حب البقاء التى هى أقوى من كل ذلك والتى أخبرتنى أنه يجب أن أفهم شيئًا مما يدور حولى وإلا ضعت فريسة هذا الاضطراب النفسى الذى لا يطاق ..»

« خلف الباب المغلق سمعت صوت (سليم الشادى) المتلعثم يتكلم مع صوت آخر . نسائى . ولم أكن قد رأيت واحدة من نساء الدار منذ جئت اللهم إلا الخادمة ومريضتى الطفلة . وكان الصوت خافتًا ، إما أنهما يهمسان أو أن الباب سميك جدًا فألصقت أذنى به وضربات قلبى تعلو ووصلتنى مقاطع ناقصة من الحوار ..»

« سمعتها تقول ..: (ألا تفهم .. إن اللعنة تحيط بنا من كل جانب .. الله نفسه يلعننا ؛ فإلى أين نفر .. ما فعلناه كان أبشع جريمة يمكن أن يقدم عليها

من .. أكثر شناعة من سفك الدم والزنا ..) وهو يجيب :(لـ .. لـ .. لكن .. هـ .. هـ .. هذا فات أوانه .. كو .. كو .. كل ما حدث كان رغمًا عنّا .. شـ .. شعر .. بعرنا بما يكفي هـ .. من الـ .. الندم) .... فيقهقهت بجنون : (ما يكفي ؟! بل إن كل ما بقي لك من عمر الندم لن يكفي لتعيشه أيها الفاسق الأثيم) .. (اخـ .. اخرس !) .. (نعم .. هذه هي عائلة الصمت . فليشهد كل من يمجدون اسم عائلتنا العتيدة أي فظاعة ترتكب هنا .. حتى الموت لا نستحقه جزاء هذه القبيحة .. ربما يكون العار مناسبًا لنوصم به لنموت في كل يوم عشرات المرات) .. (أ .. أنت أيضًا كو .. كو .. كنت مشاركة في هـ .. هذا ..) ـ كانت تجهش بالبكاء الآن : (كلنا نستحق أن نحرق ! لعل النار تطهّرنا من جريمتنا المشينة) .. »

« وبدا أنه تعاطف مع بكائها الذي ضايقني لأن صوتها قد ازداد خفوتًا فلم أسمع من كلامها إلا حروفًا متفرقة وعبارة واحدة واضحة لم أصدق أنني سمعتها ! يا للهول ! إن ما كانا يتحدثان عنه .. »

ـ « ماذا ؟! »

صمت لدقائق بدت كعمر طويل من القنوط ثم تابع :

ـ « هذا أقبح من أن يقال ، وهو في النهاية استنتاج من عندي ربما كان غير طبيعي ، لكنني عندما صدمت وقررت أن هذا كافٍ وأن عودتي إلى حجرتي قد أصبحت ضرورية سمعت المرأة تصرخ ، صرخة حادة رفيعة ثم صوت صفعة قوية وصرخة جديدة بفعل الألم أعقبتها بسبّة وصوت شيء خزفي يتهشم

وأخيرًا صرخة طويلة مدمّرة للأعصاب .. بدون تفكير فتحت الباب أحاول منع الرجل من خنقها . كانت حجرة نوم وهى تتشبث بأحد أعمدة الفراش بينما هو يجثم فوقها بقامته النحيلة الطويلة وبيديه العاريتين يجهز عليها ضاغطًا بإبهاميه على جذور عنقها . أسرعت داخلًا أحاول فصلهما عن بعض ، كانت لحظة حامية ، المرأة جاحظة العينين تتشبث بعنقى كأننى طوق نجاة ربما لن تجده بعد لحظة تنتهى فيها حياتها وهو لم يزل زارعًا كفيه فى لحمها وقد تملّكته غضبة لا تناسب طبيعته التى عرفته بها لكنها كانت قوية وقادرة على إزهاق الروح ، لم أستطع زحزحته بسهولة ، كان يرتج كالمجنون وخصلته تتدلى فوق جبينه كاشفة ندبة صغيرة بشكل الهلال .. بين العينين .. راعنى كذلك أن أرى ذات الندبة فوق جبين المرأة التى ظننتها زوجه لكن التماثل بينهما كان فوق أى سؤال إنها أخته ، بل توأمه ..»

« .. لكن ما فشلت فيه استطاعت تحقيقه طلقة نارية من مسدس عملاق فى يد الباشا الكبير الذى ظهر ليسد الباب بكيانه الضخم وروبه الحريرى .. توقف ثلاثتنا عن الخنق والفض والتشبث ، تجمدنا كما فى الصور الفوتوغرافية للحظة ولوح الباشا نحوى بالمسدس والشرر يتطاير من عينيه صارخًا : (أخرج من هنا !) لم أكن فى حاجة إلى تشجيع ، رحت أهرول عبر الرواق ، وكفت فوق الدرج ولمحت الخادمة السمراء عند الباب لكننى لم أتوقف .. غادرت البيت حافيًا بثياب النوم وظللت لربع الساعة أحاول أن ألتقط أنفاسى بالخارج بينما اخترقت حواسى طلقتان ناريتان بالداخل ، صرخة أنثوية ثم واحدة أكثر

مشوهة وأصبح للضباب رائحة البارود نفسه .. وانغلق الباب ورائى للأبد ! »

« .. مر الوقت ليزيل أثر هذا الكابوس بمعرفته ، وظل الباب مغلقًا حتى هذه اللحظة .. ثمة محاولات خرقاء فردية لاختراق حجب البيت لكنها كانت محاولات عقيمة ، هذا بالنسبة للآمن منها أما الآخر فقد كان محاطًا بجو من الرهبة غير المحببة إلى النفس . أحد الصبية حاول التسلل إلى هناك مصطحبًا مذيعًا لديه لكنهما ظلا أسبوعًا كاملًا يعانيان من وجوم تام تم إرجاعه إلى الطقس الذى ألحقه بهما ذووهما لكنه لم يكن كذلك . لقد كشفت على أحدهما وكان يهذى محمومًا بأشياء عرفت أكثرها ولم يكن غيرى ليفهمها لأننى رأيت بعضها بنفسى ... »

« .. وهكذا أصبحت منطقة البيت محرّمة تمامًا ، وكان هذا التحريم مناسبًا لم تكن لدى أحد الرغبة فى عصيانه على حد علمى إلا فى استثناءات لا تذكر وكلها تؤكد صحة الحظر ، فالبيت يحمل طاقة نفسية هائلة وغير مبررة لكن أثرها يبدو واضحًا جدًا كلما اقتربت منه ، ثمة حكايات كثيرة عن مثل هذا الأثر الكريه يتكلم عنه كل الذين زاروا أماكن حدثت فيه جرائم كبرى أو مذابح، أعتقد أن هذا البيت ينتمى إلى هذه القائمة وكنت بلا فخر شاهدًا على ظلمات جريمة من هذا النوع ولن نترك لخيالنا العنان »

أخيرًا نهض وقد مر وقت طويل ونفدت علبة سجائره ، هززت رأسى فلم يعاودنى أثر حكايته المخيفة لكنه بدا كمن يحكى لك عن ذكرى قديمة لا

أثر لها فى حياته . خلع معطفه الأبيض وعلّقه على الحائط وقال محاولاً رسم ابتسامة لكنه استبدلها بأن مط شفتيه :

ـ « تقول فى ذهنك الآن أننى قد أضعت وقتك بالثرثرة التافهة . سوف تفكر فى كل هذا ثم تجده غير قابل للتصديق ولا يمكن ذكره فى أية أوراق رسمية . لكنك قضيت وقتًا مسليًا . أنسيتك الجوع والإرهاق وأجبرتك على شرب قهوتى !! »

ثم فهمته عاليًا أن (لقد ـ ربحت) وخطر لى أن الرجل يلفق كل ذلك لكنه بادرنى بتعبير جاد على وجهه المجعد وهو يقترب منى :

ـ « .. لكنك تريد أن تنتهى من قضيتك . هذا هو كل ما يهمك فهو سبب بقائك الوحيد فى هذا المكان المتخلّف . إذا أقفلت ملفك تعود .. حسنًا .. لغز الأطفال المفقودين وضحاياهم يكمن هناك »

وبالطبع عرفت أين يعنى .

* * *

« مواجهة »

ـ « كنا بعد صغارا ، فإذا كان الانتقام لفعلتها وقتها إذا سلمنا بلعب الأطفال هذا ! »

يقف (عبده) مستعدًا للرحيل والضيق بادٍ عليه :

ـ « تعرف أنها حاولت وأفلتنا وقتها ، وربما ما تفعله الآن أكثر ذكاء . أنا وأنت رأينا ذلك الصبى الميت (سلمان) وقد دبت فيه الروح وهو يخرج إلينا من حقل الذرة جثة تمشى لا هدف لها إلا ضمّنا إلى عالمها . ولا أفهم كيف لم تلاحظ أن ما يحدث الآن هى السبب فيه هؤلاء الأطفال يذهبون إليها ، تدعوهم أو تسحرهم لا يهم . المهم أنها تصنع منهم مثالًا لها لغاية واحدة : تدمير كل رموز حياة من أمثالك وأمثالى ممن تركوها فى وحدتها تحترق .. غدًا سوف تمرح الأشباح فى طرقات القرية والبيت الذى لعنوه أعوامًا سوف يتحول إلى مقر رئيسى لهم ! »

ـ « أنت قلتها .. ونحن لم نعد أطفالًا فلا سلطان لها علينا ! »

فتح الباب وألقى آخر ضحكة ساخرة لديه :

ـ « .. إذًا انعم بالدفء فى حضن زوجتك الجميلة ظنًا أنها ليست قادرة على إرسال شبح صبى ما لتمزيق جسدك أو إيقاف دقات قلبك ، وعندما يعود المحروس ابنك ، سله لمَ تأخر كل ذلك الوقت ! »

* * *

روح التوتر المتلمس ذهبت بالصبيين (محمود سيد الخضراوى) و (على توفيق إبراهيم المدنى) إلى حافة الذعر التام .

ـ « صدّقانى إن حياة الأشباح ليست مؤلمة إلى هذا الحد . سوف تريان الفارق وتحكمان »

ما الذى تعنيه هذه المرأة ؟

ـ « .. نعم ، أعرف . صبية كثيرين فى مثل عمريكما كانوا يشعرون بالوجل فى أول الأمر لكنهم اعتادوا عليه بعدها وأستطيع القول أنهم يستمتعون به الآن .. عندما تتحولان بدوريكما إلى شبحين سوف نستطيع معًا تحرير هذه القرية الجاهلة من الرتابة اليومية التى ترزح تحتها وسوف تعرف طعم الحياة الحق . حياة الأشباح الخالدة . لا موت يتهددنا ولا متع زائفة نتعلق بها . ولن يكون المطلوب منكما وقتها لا يناسب قدراتكما . الأشباح تستطيع فعل الكثير . فقط سوف تساعدانى فى ضم هؤلاء البؤساء من أهل القرية إلى عشيرتنا المتحابة » ثم ابتسمت بجدية مرعبة وهى تدنو من (محمود) ورائحة خبيثة تفوح منها : « والأقربون أولى بالمعروف .. سمعت أن والدك .. »

قطع هسيسها صوت خطوات مسرعة تهبط السلالم وبرز (سلمان) بجلبابه الترابى وفى يديه بندقية عملاقة بماسورة واحدة غليظة صوبها نحوهما وعيناه الرماديتان تلمعان بالحقد والحماس المتقد هاتفًا : « هل أقتلهما الآن يا عمتى ؟! »

سعلت برقة فى كفها المضمومة وأشارت إليه ببساطة : « كلا يا ولدى .. انتظر قليلًا ! »

يتبادل (محمود) و(على) نظرات زائغة وهى تقول :

ـ « انظر الفارق بين العالمين .. ما الذى جناه هذا الصبى المسكين ليقتله أصحم قبلة ويلقى به فى حديقة بيتى ، يقذفون الدار وأهله باللعنات ثم يعودون إليه ليخفون به آثار جرائمهم .. صبى فى مثل عمره يتلقى رصاصة فى ظهره فقط لتصفية حساب قديم بين أبيه وعدو له .. أعرف أنكما لا تطيقان سمعًا لتنعما بالعدل فى عالمنا المتناغم ! »

وانطلق رصاص البندقية .. رصاص حقيقى نسف صفًا كاملًا من كريستال الثريا فأمطرت شظايا فوقها ، حمدًا لله أن الأشباح لا تجيد إصابة الهدف . صرخت هى : « .. قلت لك انتظر يا ولد !! »

وجاءت آخر نظرة يتبادلها الصبيان لأنها حملت رسالة سريعة واضحة انطلقا على أثرها فورًا :

ـ « اجرِ يا (محمود) ! »

ركضا بسرعة غير معقولة صوب الجانب الأيمن حيث اصطدما بحائط مركزى، حاولا الاختباء وراءه بينما أطاحت رصاصة ملتهبة جزءًا من الحجر المصنوع به . هذا هو المطبخ . نافذته طويلة بقضبان ، أرضيته من الرخام القديم ، به دولاب خشبى لحفظ الثوم والبصل ، حبل يتدلى حاملًا أباريق وقطعًا قليلة من اللحم . حاول (على) فتح الدولاب الخشبى للاختباء بداخله لكنه وجده تابوتًا انتصبت بداخله جثة محنطة لامرأة سوداء ! صرخ وصرخ وصرخ .

بينما قبض (محمود) على سكين ضخمة فاحمة المقبض ووضعها فى جيب بنطاله الخلفى وتناول (على) من يده وخرجا بسرعة . الظل الملوّن للمرأة الشبح والصبى الموتور فوق الدرج يستعد لإطلاق النار من جديد فور رؤيتهما. فأخذا فرارًا سريعًا بالركض صاعدين السلم المنحنى المقابل للذى يقف عليه (سلمان) الذى أطلق رصاصته الثالثة . لكنهما نجحا فى بلوغ الطابق الثانى وصوت المرأة يهدر :

ـ « وراءهما يا (سلمان) ! »

* * *

ـ « رووووووووووووووووووووح ! »

أصبح للصوت المستذئب تأثيرًا مخيفًا علىّ الآن وكلمات الطبيب الأخيرة يتردد صداها فى رأسى :

ـ « المهمة الأولى لرجل القانون هى منع حدوث الجريمة لا أن يملأ أدراج النيابة بتقارير وتقارير عن حالات الضحايا واعترافات الجناة . هنا لن تصل إلى ما يمكن أن تملأ به تقريرًا محترمًا . لكنك إذا أردت أن تحاول وقف هذا الجنون فاذهب إلى منشئه الأصلى »

رحت أفكر مرارًا فيما يجب عمله حتى وصلت إلى قسم الشرطة حيث استوقفنى الضابط الشاب وأنا فى طريقى إلى حجرتى :

ـ « سيدى ! ثمة من يود مقابلتك هنا ، يقول إن لديه ما يفيد قضيتك »

* * *

وخلا رواقًا طويلًا بسرعة فكادا يسقطان مزهرية بطول إنسان وقال (على) وهو يلهث تحت حلية مذهبة ومزينة بالريش الملون : «لماذا أحضرت معك هذا السكين ؟ هل تعتقد أن الطعنات تؤثر فى الأشباح ، خاصة تلك التى تحاربك وهى تطلق أعيرة نارية ؟ »

أجابه (محمود) وهو يحاول فتح أحد الأبواب : « بالطبع لا ، لكنه الشىء الوحيد الذى وجدته أمامى ، شىء مريح أن تحمل سلاحًا حتى وإن كان غير فعال »

خطوات تقترب صاعدة والباب يرفض أن يفتح . أسرعا يركضان عبر الرواق المزيّن باللوحات النادرة والمزهريات الثمينة حتى اختفيا خلف جدار نهائى ، وهناك وجدا البداية لرواق جديد وسلالم صاعدة وخطوات (سلمان) الشبح تركض آلية . هل تصدر الأشباح أصواتًا عندما تتحرك ؟ ولمَ لا ؟ مادامت هى قادرة على الكلام وحمل البنادق ولعب الكرة ! يجرّبان بابًا تلو الآخر حتى يفتح أحدها أخيرًا .

حجرة نوم ملكية ، يدخلان ويغلقان الباب خلفهما ..

بووووووووف ! وينطلق حولهما مسحوق أحمر فينتفضان ، وفى ظل الدخان الملون تتحسد أمامهما تفاصيل مشهد : رجل وامرأة متماثلان فى الشكل وقد يكون الاختلاف الوحيد هو أن الرجل يرتدى بيجامته الحريرية والمرأة بثياب النوم وبشعر أطول . الرجل يجهز عليها ، قابضًا على عنقها وهى تصرخ بلا صوت ولسانها يتدلى من بين شفتيها وشعرها يهتز مع كتفيها وجسدها الذى يلج كالدمية .

يلتصق الصبيان بظهر الباب ذعرًا والرجل يواصل قتل المرأة . لا إنه لا يقتلها، لأنهما ميتان بالفعل . ميت يقتل ميت . هى تتشبث بأعمدة الفراش أو الستارة المعلقة فوقه وهو يرتكز بأحد قدميه فوق مقعد صغير أنيق مغطى بالمخمل الأخضر ليزيد من قوة ساعديه .

ويبدأ الدق خلف رأسيهما فيقفز (محمود) فى منتصف الحجرة داخلًا فى الرجل والمرأة المتشاحنين ويتبدد صوتهما .

(سلمان) يدق الباب بديشك بندقيته العملاقة التى تماثله طولًا وربما عرضًا . لا يدق طالبًا الإذن بالدخول وإنما ناويًا بصدق أن يحطم عليهما الباب . ولكن، ألا تنفذ الأشباح من الجدران والأبواب ؟ ليس هذا وقت معاينة الخصائص الشبحية على كل حال . لأن الولد الرمادى قد نجح فى فتح الباب وصوّب نحوهما سلاحه الرهيب .. ..

* * *

.. خرجت فى صحبته من قسم الشرطة . وبعد ما سمعته فى عيادة الطبيب، صرت متاحًا للاقتناع .. بدا لى صادقًا وكنت مستعدًا للتصديق . اتخذنا طريقًا ثعبانيًا يزحف بين عشرات البيوت الصغيرة .

ـ « .. أعرف يا سيدى أنه لم تتم أربع وعشرون ساعة على اختفاء ابنى ، لكننى أؤكد لك أنه يواجه خطرًا لا قبل له به الآن »

وأنى بحركة مغضبة بيده ثم أردف وهو يمد الخطى بجوارى : «ربما هو يدفع ثمن خطأ ارتكبه أبوه وهو فى مثل عمره .»

التفت إليه بسرعة لكننى لم أعلق ، فقط غمغمت : « يحسن بنا إذًا أن نسرع »

سألهم منه فى الطريق .

* * *

انطلقت رصاصة (سلمان) الرابعة فى رحلة طويلة بالحجرة التى تحجّر فيها الصبيان خوفًا ، اصطدمت بعامود السرير فأطلقت رنينًا معدنيًا مجلجلاً ومزّقت حافة الفراش فانفجر منها الريش الناعم وأخيرًا حطمت المرآة إلى عشرات القطع حول ثقب واسع فى المنتصف .

-« النافذة ! »

أسرعا إلى النافذة العريضة . فتحاها بسرعة لأن المزلاج كان من الطراز القديم البسيط التركيب وداهمهما هواء الليل فتراجع (سلمان) إلى الوراء لحظة ثم بدأ يعمل من جديد فى بندقيته . صعدا الإفريز بمساعدة أحدهما الآخر ثم تشبث (محمود) جاحظ العينين بالجدار الحجرى الخارجى .

-« لا تنظر إلى أسفل ! »

نظر (على) إلى أسفل فراعه مشهد الحديقة الميتة وأسوار البيت وظلال الطريق وبعض أضوائها من بعيد . كانا على ارتفاع مناسب جدًا لدق عنقيهما

إذا أفلتا ، لكنهما راحا يسيران بهمة وهما يلصقان ظهريهما بالجدار والإفريز ضيق لا يسمح بأى مساحة لتعدّل من وضع قدميك . حتى وصلا أخيرًا إلى النافذة المجاورة عندما برز (سلمان) من النافذة التى غادراها توًا ! وضع كعب بندقيته إلى كتفه وصوبها نحوهما وأطلق عيارًا فى اللحظة التى ألقيا بجسديهما داخل الحجرة متعثرين بكومود .

سقط أحدهما فوق الآخر وامتقع وجه (محمود) عندما وجد قميصه المدرسى قد تلوث بالدم فوق صدره ..

* * *

.. وصلنا إلى البيت المشئوم فى وقت تمنّينا أن يكون مناسبًا .. ألا يكون متأخرًا جدًا على الأقل . كنت قد لمحت صورته من بعيد أكثر من مرة ، لكن هذه هى المرة الأولى التى أواجهه من مسافة قريبة كهذه ولم أحبه أبدًا .

لا أعرف إن كان هذا هو نفس رأيى لو لم أسمع حكاية الطبيب أو قصة (سيد الخضراوى) التى عرّفنى بمضمونها فى عجالة ونحن فى الطريق إلى هنا ! لكننى أثق أن للبيت والمساحة المحيطة به تأثيرًا سلبيًا على الروح وما شعرت به الآن هو نفس ما تشعر به عندما يخبرونك بقبح شخص ما وغبائه وشره وسماجته فلا تصدق إلا عندما تراه وجهًا لوجه . وقتها لن تسعفك صلابتك الاجتماعية ولا قناعك المنافق بل سوف تفعل كل ما فى وسعك للفرار من مجلسه .

لكننا لم نأتِ إلا لنواجه الأسف . ففى الهروب مغبّة أكبر .

بدأت أصعد درجات المدخل بسرعة لكن (سيد) استوقفنى : « من هنا ! »

ووجدته يشير إلى نافذة أرضية لن تلاحظها أبدًا ما لم يخبرك أحدهم أنها موجودة فى هذا الموضع . تبعته بخفة وخلعت سترتى استعدادًا للدخول غير الشرعى !

فرغت من ثنى كمّى قميصى للحصول على حرية حركة أكبر وبدأت فى زحزحة الضلفتين الخشبيتين فى النافذة بقوة لكنها متينة جدًا :

- « ألن تساعدنى ؟ »

كان يقف بلا حراك يدير عينيه فى الحديقة وتخيّلت أننى أرى على شفتيه ابتسامة حنين خفيفة لكننى كنت أتوهم بالطبع فليس هذا بالمكان المناسب لتذكر أى شىء عدًا أنك يجب أن تعمل بسرعة .

- « أنت ! »

انتبه إلىّ فبدا كمن ينتفض خارجًا من حلم . أسرع نحوى وبدا رشيقًا خفيفًا رغم أنه يتحرك فى جلباب بلدى . وأوقفنى بإشارة من يده التى رأيتها فى هذه اللحظة دقيقة رقيقة كيد طفل :

- « ليس هكذا »

وأراح يدى برفق ثم تلمّس الشق بين الضلفتين وسار عليه بأصابعه حتى وصل إلى نقطة فى أعلى الضلفة اليسرى داعبها بطرف سبابته محركًا زائدة معدنية فى حجم عقلة الإصبع ، على أثرها انفتحت النافذة !

نظرت إليه لحظة بإمعان ثم إلى جوف الحجرة وبدأت فى الاقتحام . دخل ورائى لكننى تركت له القياد . واضح أنه الزعيم هنا . وبينما راح يعمل على فتح باب الحجرة تأملتها متوجسًا وكل شىء فيها يوحى بالقدم ، مغطى بالتراب، طبقات كثيفة من التراب ، حتى الستائر فقدت لونها الأصلى تحت وطأة الزمن .

ـ « هيا بنا ! »

* * *

.. غطى الدم صدر (محمود) لكنه لم يشعر إلا بالألم فى كتفه التى سقط فوقها وهنا انتبه إلى وجه (على) الشاحب المغطى بالعرق وإلى الثقب المخيف الغارق فى الدم على جانب الفانلة الصفراء القذرة التى يرتديها ..

تناول رأسه بين ذراعيه وحاول أن يسد الجرح القاتل بباطن كفه فشعر بغصة فى حلقه عندما وجد أن مُعدّل نزف الدم أسوأ مما يمكن .

وتحشرج صوت (على) وهو يلهث غير مصدق :

ـ « اللعنة ! لقد أصابنى ابن العفاريت ! لقد أصابنى ! »

ارتجف جسد (محمود) بالكامل وشعر بالعرق البارد يغطيه :

ـ « كف عن الكلام يا (على) ، سوف تنجو .. سوف تنجو »

أصبح النفس يخرج من فتحتى أنفه ثقيلًا :

ـ « لا .. إننى أموت .. أموت يا (محمود) .. اللعنة ! »

ودارت عيناه كأنه يتأمل الأثاث العتيق الذى ملأ الحجرة وزاغ بصره وأخيرًا

يتم بإعياء بالغ وخيط من الماء ينزل من أنفه ، مخاط أو دمع أو عرق :

ـ « أموت .. قبل .. قبل أن أخبرك بسر البيت المسكون ! »

صرخ (محمود) وهو يهزه بعنف والدموع تعمى بصره :

ـ « اللعنة عليك .. كف عن الكلام ! »

لفظ أنفاسه الأخيرة :

ـ « الحيلة كلها فى سقف البيت .. كنا نضع .. »

وجرى نهر صغير من الدم الأسود خارجًا من فمه المفتوح وانطلق يشق طريقه على ذقنه وعنقه ويدخل ياقة فانلته الصفراء . وسكتت أنفاسه تمامًا بينما فتح (سلمان) عليهما الباب .

* * *

فى البهو الفسيح رفعت عكازها فى وجهينا وبصوت يخرج من القبر هتفت :

« أخيرًا يا (سيد) ! بعد كل تلك الأعوام ! »

تراجع للخلف لا إراديًا فكاد يصطدم بى ثم تماسك وقال : « من أنت ؟ وأين لبس ؟ »

ضحكت وهى تنقل بصرها إلىّ واقتربت : « تدخل بلا استئذان وتلقى بالأسئلة كذلك ، يا للجرأة ! » ثم رق صوتها بينما تناهت إلىّ أصوات جلبة بأعلى : « ألا تتذكرنى حقًا ؟ يا لك من جاحد . الحق عندك ، فلم تفعل بك السنين ما فعلته بى ؟ » واحتد صوتها من جديد ـ « لم تعرف الانعزال ولا الوحدة ولا كيف يمضى الزمن فى ظل الهجران ، تعرف فقط كيف تمرح وحين يأتى الجد تهرب

كالأرنب ، وبالمناسبة .. أين الجبان الآخر .. لا تقل لى أنه هو ذلك الأفندى الذى جاء برفقتك الآن .. فلن تخدعنى ! »

وهنا تصلّبت أذنها للوراء كقطة هائجة فى وقت القيظ عندما دخل إلى مسرح الموقف ضيفًا جديدًا .

ـ « أنا هنا يا (رهف) ! »

دارت رأسها فى مكانها إلى الخلف ! يا إلهى ! دارت رأسها إلى الخلف فى حركة واحدة حادة بينما ظل جسمها على حالة مواجهًا لنا وكأن عنقها ليس إلا محور لولبى آلى . ألتج اللعاب حلقى وتوقف قلبى عن الخفقان لحظة بينما غمغم (سيد) :

ـ « (رهف) ! أهو أنت ؟ مستحيل ! »

جسدها يواجهنا بالشال المعقود أمام صدرها الضامر وكفاها تستندان على عكازها الأبنوسى بينما رأسها فى الاتجاه المعاكس تواجهنا منه كعكة الشعر الأشيب والقفا المجعد .

وهتف الدخيل ذو السوالف المقززة والبنطال الضيق :

ـ « ابنك فى الطابق العلوى يا (سيد) ، أسرع إليه قبل أن يفوت الوقت ! »

تردد لحظة ثم نظر لأعلى واندفع داخلًا ثم أسرع يصعد الدرجات بينما حاولت المخلوقة المخيفة أن تتقدم نحونا لكن رأسها كان يهم بالحركة نحو (عبده المدنى) فاختل توازنها لحظة ، لكنها استطاعت أن تتراكب من جديد قبل أن يفلت من مجال نظرها .

ـ ، وأجيب كلهم هنا ! »

وبسرعة خرافية تمكنت من تلابيبه بينما وصل (سيد) إلى الطابق العلوى يتبعه الطلال وتناولت أنا العكاز فوجدته ثقيلًا كأنه يزن ألف طن ، لكننى تمكنت من رفعه بكلتا يدى وهويت به فوق العجوز المفترسة التى رقدت بجسدها المحنى فوق (عبده) تزهق أنفاسه ، لكنها لم يبد أنها تأثرت !

* * *

ـ لم يعثر (سيد) على ابنه فى أى من الحجرات التى فتح أبوابها حتى فتح الباب الرابع ليجد أمامه (باشا) مهيب يرتدى روبًا حريريًا وأمامه توأمان يطرغان ، ليسوا من البشر ، ولا واحد منهم ، فأثاث الحجرة الفخم يظهر من أجسادهم الشفافة .

لوح أمامه الباشا بمسدس من صنع اسطنبول صارخًا : (أخرج من هنا !) ثم صوب فوهة مسدسه إلى الرجل والمرأة وأطلق رصاصتين مكتومتين فسقطا تحت قدميه وهما يتعانقان كعاشقين ثم وضع الباشا ماسورة المسدس فى فمه وصرخ للمرة الثانية والأخيرة : (أخرج من هنا !) وجاءت هذه المرة مصحوبة لوجود الفوهة القاتلة فى حلقه ، ثم أطلق النار فانفجرت رأسه ناثرة مسحوقًا أحمر اللون فى سماء الحجرة التى أغلق (سيد) بابها وهو يركض إلى بداية الرواق الجديد ليفاجئه مشهد الصبى الترابى بجلبابه القذر وصفيته الثقيلة الصدئة ليسد أحد الأبواب . أسرع إليه فى اللحظة التى رأى

فيها ابنه (محمود) يسرع نحوه من داخل الحجرة قابضًا على سكين هائلة الحجم والتقى الاثنان فى ظل الشبح الصغير الذى صرخ صرخة رفيعة كصيحات الفئران وتلاشى دفعة واحدة بينما كادت السكين تنغرس فى لحم ذراع (سيد) الذى احتضن ابنه منكوش الشعر دامع العينين يغطى وجهه التراب والعرق والدم واللعاب و ..

* * *

لتحميل المزيد من الروايات
الحصرية الرائعة و الممتعة
زوروا موقع
مكتبة رواية
www.riwaya.ga

www.riwaya.ga

« تقـريـر »

السيد رئيس نيابة السويس/ تل القلزم ـ أول

تحية طيبة وبعد ،

يمكنك اعتبار هذه المذكرة رسالة مقدمة مني إلى سيادتكم بصفة شخصية ، حيث كنت مكلفًا بمتابعة قضية اختفاء القُصّر في منطقة (الجناين) ، ملف هذه القضية أغلق الآن بمعرفتي ومرفق طيّه صور لمحاضر أقسام الشرطة في حي الأربعين والجناين وأقوال الشهود ونص المعاينات المباشرة وكذلك تقرير طبي لجثة أم أحد الصبية المختفين ، لا نرجو أن تكون هذه قضية جديدة لأن القديمة لم نقف لها على نهاية منطقية ، لكنني بشكل غير رسمي ولأسباب يطول شرحها يمكنني الجزم أن القضيتين مغلقتان الآن ، ربما لم نتمكن من القبض على الجناة لكننا على الأقل نجحنا في منع حلقات جديدة من هذا المسلسل . ما قلته يا سيدي ليس لغلق باب أتمنى أن يوصد ؛ وإنما طلبًا في مقابلتك لفتح أبواب كثيرة تخص القضية ذاتها .

مقدمة لسيادتكم

(بشرى عدنان)

وكيل نيابة

* * *

www.riwaya.ga

.. كل ضرباتى بالعكاز الثقيل على ظهر تلك الشرسة لم تضرها شعرة ، لكنها على الأقل أبعدتها لحظة عن (عبده) والتفتت إلىّ بينما هو يحرر نفسه من تحتها . تناولت منى العكاز فى حركة قوية وألقته أرضًا وعيناها تلمعان بالجنون ..

لمحت (سيد) بجوار صبى حديث السن على السلم وهو يهتف : « خارج السور ! »

لم أفهم ! وحاولت التملُّص من قبضة العجوز البغيضة بينما سمعت (عبده) يتمتم : « نعم .. إنها لا تحتمل ذلك ! »

يبدو أن لديهما حل ما لأن (عبده) راح يحاول فتح الباب الرئيسى بسرعة رغم الخطوط الدامية على وجهه من أثر أظفارها .

* * *

.. سقطت فوق أحد المقاعد بينما (سيد) يدفع ابنه للخروج وزمجرت هى بشراسة الذئاب وهى تتخلى عنّى فلم أكن مهمًّا لها :

ـ « لن تفلتا أيها الوغدان ! »

* * *

تحركت كالآلة القاتلة خارجة من الباب خلفهما . فانتهزت هذه الفرصة ونهضت ثم تبعتها وكان ثلاثتهم فى الحديقة بين الجذوع الميتة السوداء والريح تلطم الأفرع الضعيفة وتواصل سيمفونيتها المرعبة فى الأفق البعيد .. (سيد) يجذب ابنه للخروج من سور البيت بينما نجح (عبده) فى الخروج خلفهما هو

www.riwaya.ga

وأمر.. عندما خرجت أنا إلى الحديقة والعجوز الشمطاء بيني وبينهم ، تجرى نحوهما بالسرعة التى مكنتها لها الأرض الموحلة لكنها ..

* * *

.. عند حدود السور سقطت على ركبتيها .. مدت ذراعًا نحوهما طلبًا للعون أو طلبًا لأعناقهما وجحظت عيناها وهى تفتش عن حنجرتها بكل أصابعها ، خرجت منها صرخة ألم متحشرجة ورأينا جميعًا أدخنة بيضاء تتصاعد من بالقة لونها ومن فتحتى الكُمّين ومن بين خصلات شعرها نفسها .. كان وجهها يتوهج بنار داخلية .. تشبث الصبى بجلباب أبيه .. بينما مسح (عبده) جبينه وفى عينيه تعبير غير مفهوم من القسوة والحزن والندم والشفقة . وعلى بُعد لاحت ظلال أطفال ثلاثة ..

* * *

.. يمكننى الآن القول بأن كل شىء انتهى . تمت المواجهة فى حيز بعيد عن العيون وكان هذا مناسبا .. أوصى بوضع حراسة حول البيت فلن يقترب منه أحد وإن فعل فلن يدرى شيئا .. الشبح الذى احترق ليلة أمس لن يكون له وجود عندما تشرق شمس الظهيرة وترحل السيارات المصفحة حاملة صناديق الانتخابات .

لكننى ذهبت لوداع الدكتور (ابن هانئ) وأخذت منه تقريرًا واحدًا يخص حالة واحدة هى الموجودة فى الثلاجة التى خصصتها وزارة الصحة بالتعاون مع وزارة الداخلية فى الوحدة الصحية المتواضعة !

ثم إننى حملت حقيبتى الصغيرة وغادرت القرية التى لم أحبها أبدًا فى سيارة الشرطة الزرقاء التى سارت بنا على حيز ترعة طويلة حيث على جانبنا الأيمن تتوالى البيوت الصغيرة المضاءة إذ اختفت الجلسات الصغيرة الحميمة القديمة على الأعتاب وقبع الكل ببلاهة وبلادة أمام شاشات التلفاز ولم تعد الأحاديث الليلية هى الرابط بين الجيران بل شبكة من الأسلاك السوداء الغليظة الخاصة بطبق الدش المفتخر تحت رعاية (كريم) إمبراطور الفضائيات . ثم الجامع المهجور عند صلاة العشاء . والمقهى العامر بالعاطلين تحت أنوار الشاشة الملونة حيث تمزق مطربة ملابسها الضيقة بمقص .. والتفت ببطء أنظر إلى الجانب الأيسر حيث لا يوجد بالمقابل لكل هذه التفصيلات الضئيلة سوى رمز واحد شامخ . بيت عائلة (الشادى) التى يمتد أصلها إلى السلطان (نعمان داغر) يقف عملاقًا يشق السحب ويتحدى الجميع . ثم أرخت رأسى على ظهر مقعدى أتأمل الطريق الطويل أمامى .

لا خطر يمثله البيت الآن .. فكل البيوت مسكونة !!

تمت بحمد الله

لتحميل المزيد من
الروايات الحصرية
www.riwaya.ga

www.riwaya.ga

عن الرواية ..

« كل ما فى الأمر هو أنكما سجينان لتلك القرية الصغيرة وأهلها التافهون، يقفا حولكما وتذكرا المكان الذى جئتما منه ! فقراء يأكلون القذارة وجهلة يعشرات جل علمهم هو الألفاظ الجديدة فى عالم السباب ، صبية بائسون وبنات صغيرات تباع فى السوق للشحاذين .. كل ذلك البؤس وبينهم هذا البيت الجميل منذ أعوام وأعوام ، يخشون دخوله لأنهم حمقى . لأنهم يعشقون الطين والريف والعادة . الجهل والفقر والمرض] جاءت هذه العبارة عند اختتام الحدث الهام بالرواية بشكل مقصود كدرس فى الأسلوب والرؤية والحكم الشامل لموقفنا المحلى والعالمى ، وأعتقد أنها تلخص كل شىء ها هنا . قرأت هذا العمل شديد الإتقان والجاذبية فى جلسة واحدة على غير العادة ، ربما لأنه مغاير للطرائق الأدبية السائدة ، فلا هو يتفلسف معقدا الأمور كعادة أدباء الجدد ولا هو يستمر فى إيهارك اللحظى دون عناية بالتفاصيل اللازمة، الرواية رائعة بحق وتستحق أن تكون بداية انطلاق جيدة للأدب الغرائبى الذى نتمنى أن نراه مكتوبا بالعربية . الكاتب شديد الثقافة والدراية بالنفس البشرية لكنه ـ بمنتهى الاحتراف ـ لا يجعل من أدواته الصلبة الأنيقة سوى خلفية هامة للرواية التى تنساب بسلاسة سحرية فتقلب صفحاتها بسرعة دون ملل أو إعياء، يناقش قضايا هامة فى إطار برىء يرفع فيه الجدل إلى درجة الشعر، والرعب إلى درجة الشاعرية هاضما بمنتهى العمق تراث بو وستيفن كنج بل ـ نوح رفعت إسماعيل العجوز العتيد كانت تهيمن على النصف الثانى من الرواية فى شخص الطبيب الجنائى ! »

د. أحمد الجندى

www.riwaya.ga

« تقف هذه الرواية على الحد الفاصل بين المداعبات الخفيفة لأوتار الحنين والمغامرة وبين البحث العميق فى خفايا النفس وطرق مشاعر خفية ورؤية جديدة شديدة الدقة تكاد تكون شاملة فى كل موقف . رواية من النوع الذى تحبه بسهولة لأن صوت الراوى بها صديق صادق قوى يقبض على خيوط اللعبة ويحرّكها ببراعة واقتدار . إلا أن أهم ما يميزها فى رأيى هو سهولتها الممتعة فالكاتب اختار مغامرة يمكن معالجتها بخفة وسذاجة ما لم يكن حريصا ليأخذنا معه فى رحلة نفسية ممتعة ومعقدة دونما تفلسف أو جهامة . الغموض ينتشر فى جنباتها لكنك عند قراءتك الثانية لها ستجد فى داخلك تفسيرات يسيرة وستكتشف جوانب أخرى أكثر غموضًا وأدعى لإثارة التفكير والتأمل . بعد صفحات قليلة وجدتنى أتخلى عن طبيعتى وأتقمص شخصية بطل الرواية أو تركته يتقمصنى . وإذا كان الكاتب قد قرر أن يجعل روايته نفسية أو تنتمى لأدب الرعب فلن أتعجب لو وجدتها يومًا مترجمة فى طبعة أنيقة ذات غلاف فاخر على ذات الرف مع جيمس هربرت ودين كونتز هذا لو أضفنا إلى هذين ذلك الأسلوب المحفوظى الرشيق العبارة ، الثرى فى محتواه الأدبى ، والحافل بابتكار أنماط سردية مغايرة وملهمة »

د . نوال اسكندر

« تابعت أحداث الرواية بشغف لم أتوقعه ولأكتشف أديبًا نادر المثال شديد التمكُّن من أدواته لأبعد الحدود . يدخل بك فى عمق الحدث وهو

www.riwaya.ga

يمد يدك نحو موضوعه بقبضة من حديد مغلفة بقفاز حريرى ناعم ومقدرة وتكرر كثيرًا على إثارة دهشتك ومداعبة خيالك بمهارة جراح إنجليزى يعرف كيف يعالج كل نقطة بما يلزم ، مسيطرًا على الشكل والمضمون بحرفية واقتدار كبيرين ، له القدرة البصرية التى كانت لهتشكوك وكمال الشيخ فى إرعابك بشكل شديد الأناقة ولغة نجيب محفوظ الرائقة الخلّابة »

د. شريف عبد المنعم

« .. « رهف » من بين ١٣٧ رواية تتوّج مركز الرواية الأفضل فى مسابقة رواية لدار ليلى بمناسبة العيد العاشر لها .. »

أ. محمد سامى ، دار ليلى

« قصة طويلة شائقة بمثابة دراسة جادة موجزة عن روح شبحية تتلبس البيوت والوجدان .. »

مجلوب العيدروس ، لجنة تحكيم مسابقة الطيب الصالح العالمية للإبداع الكتابى

« ستظل هذه الرواية لوقت طويل لا تغادر الذهن أو الوجدان وسوف تبقى على قمة الأكثر (والأفضل) قراءة ! »

المعهد العربى للدراسات والبحوث الاستراتيجية .

* * *

hany_haggag@hotmail.com

www.riwaya.ga

رَهَف

سوف ترى البيت العملاق فى سكونه الراسخ المتحدى للزمن والأقاويل ولا يهم إن كان الفصل شتاءً أو صيفًا ، فالجو المحيط بهذا البيت دائمًا خريفى أغبر مُلبَّد بالغيوم والغم ، وكأنه لفرط ضخامته يحجب الشمس . المنطقة حوله موحشة كئيبة ، ما إن تقع عليه عيناك للمرة الأولى حتى تجتاح روحك كراهية لا تطاق ، أقول كراهية ؛ لأن الشعور لم تنجح فى القضاء عليه تلك الرغبة الهادئة التى يحاول بها العقل أن يُصنِّف ما تتلقاه الحواس إزاء هذا الكيان الفريد .

د. هانى مجاهد

www.rewayatmasreya.com
facebook.com/rewayatmasreya
الخط الساخن
19350
الدار المصرية اللبنانية
20067001